01/03 930.01
معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 10117
تاريخ الوصول
رقم الترتيب AT M.672
ن 6

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان
****

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية

تأثير الفن الزخرفي الأندلسي على نظيره المغاربي * نموذج تلمسان *

رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية

إعداد الطالب:
صادق خشاب

إشراف:
أ . د . عبد الحميد حاجيات
مساعد المشرف:
أ. معروف بلحاج

السنة الجامعية /1420 ـ1421 هـ ـ 2000 ـ 2001م

الإهداء

* إلى أعز الناس والدي و والدتي

* إلى زوجتي و ابنتي رجاء

* إلى اخوتي و عائلتي

* إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع.

التشكرات

* جزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف : الدكتور عبد الحميد حاجيات والذي رغم ثقل مسؤولياته وافق الإشراف علي .

* كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ مساعد المشرف: معروف بلحاج على مساعدته الكبيرة ، إضافة إلى النصائح القيمة والتوجيهات ، فقد أمدني بالمراجع ووجهني إلى مكان وجودها .

* دون أن أنسى ابن خالي أحمد أودغيري الذي أمدني بالمراجع والمصادر .

* كما أتقدم بشكري إلى كل من السيد أحمد تيركة والسيد منير زهدور على كتابة ونسخ هذا العمل المتواضع .

* و أخيرا إلى كل من سهلوا لي مسيرتي في إتمام هذا العمل وساعدوني على إنجازه .

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة موضوع التأثير الفن الزخرفي الأندلسي على نظيره المغاربي موضوع شاسع وغني ، لهذا كان من الضروري أن أحدد موضوع هذه الدراسة باختيار تلمسان نموذج لهذه المقارنة كون هذه المدينة لا تقل شأنا أو قيمة عن بقية المدن المغاربية الأخرى ، بها معالم أثرية مملوءة بأنواع الزخرف المزين للمباني الدينية والدنيوية لم يكن اختياري لهذا الموضوع عشوائيا أو وليد صدفة وإنما كان عن قناعة ومعرفة لأسباب هذا الاختيار ومن جملتها التأثير الأندلسي الكبير وبالغ الأهمية الذي يظهر على جميع الفنون التقليدية في بلاد المغرب عامة وتلمسان خاصة . مدينة تلمسان عتيقة وغنية بالمعالم التاريخية والحضرية زاخرة بالفنون الزخرفية في المجال العمراني ، كذلك عامل الهجرات الأندلسية والموقع الجغرافي والنبوغ الفكري لدى العلماء والمشاييخ المغربيين والأندلسيين الذين كانت لهم قدم في الأندلس وأخرى في المغرب . عملية التأثير والتأثر بين حضارتين على ضفتي الحوض الأبيض المتوسط وهي الرقعة الجغرافية التي حددناها في بحثنا المتواضع تستدعي منا المزيد من البحث والتنقيب في تراثنا الفني الحضاري . كما أن رغبتي في دراسة موضوع كهذا يجمع بين التاريخ والحضارة وذلك بحكم تخصصي في شعبة التاريخ الذي ساعدني في تحقيق هذه الرغبة . ولهذا اعتبرت أن الفن عنصرا هاما في الحضارة ومقياسا لنبوغها أو انحطاطها كما أن مدينة تلمسان بآثارها العمرانية الغنية بفنونها الزخرفية ورصيدها الثقافي وتراثها الفني كونها مركزا وقبلة للعلم والعلماء والمتشدقين إلى معرفة المزيد من العلوم والمعارف .

أما الجانب الأندلسي فكلنا يعلم عند ذكر الحضارة الإسلامية بالأندلس يتبادر إلى أذهاننا جميعا ذلك الرقي والازدهار الذي بلغته هذه الأخيرة في جميع الميادين دون استثناء وخاصة العمران الذي كان منطلقا للحضارة الإسلامية بالأندلس .

لأتمكن من تحديد إطار موضوع البحث والدراسة ارتكزت على جملة من الأسئلة ، بالإجابة عنها كان باستطاعتي الإلمام بجوانب الموضوع المهمة . ويمكن ترتيب هذه الأسئلة كما يلي : ماهي نوع الصلة التي تجمع بين الضفتين المغربية والأندلسية قبل وبعد الفتح الإسلامي ؟ — ثم ما هي مراحل وظروف الفتح والمدة التي استغرقها هذا الفتح للمغرب والأندلس ؟ — كانت هناك علاقة بين الأندلس والدويلات المجاورة لها بالمغرب من هي هذه الدويلات ، وما نوعية هذه العلاقات ؟ . كما كانت هناك هجرات أندلسية داخلية وأخرى خارجية في اتجاه بلاد المغرب، ما هي دوافع وظروف هذه الهجرات الأندلسية لبلاد المغرب ؟ ماهي ظروف استقبال هؤلاء المهاجرين ؟ — وماذا جلبوا معهم ؟ . كانت للأندلس مكانة فنية في الحضارة الإسلامية ما هي هذه المكانة ؟ وماهي الميادين التي مسها الفن الزخرفي في الأندلس ؟ . أما فيما يخص بلاد المغرب اخترت تلمسان نموذجا للدراسة وطرحت الأسئلة نفسها بالأندلس ، أي ما هي المجالات التي مسها الفن الزخرفي بتلمسان ؟ ، ثم انتقلت إلى صلب الموضوع بطرح الإشكالية الأساسية ، ماهي درجة تأثير الفن الزخرفي العربي الإسلامي على نظيره الأندلسي ؟ ثم ما مدى تغلغل التأثيرات الأندلسية في الزخرفة التلمسانية ؟ ما هي أهم التأثيرات في باقي الفنون الأخرى ؟ وما هو الفن المدجن ؟ وانتهيت بسؤال أخير وهو ما هي نتيجة هذا الامتزاج والتزاوج بين هاتين الحضارتين ؟.

لم تكن هناك عراقيل ومشاكل معينة أنقصت من عزيمتنا في إتمام هذا العمل المتواضع ، إلا في مجال التوثيق وهو غياب النسخ الكافية في المكتبات بحيث نجد الكتب مسجلة ولا تجد لها أثرا في المكتبة . وأنا في إطار البحث عن صور جاهزة بمعالم تلمسان الزخرفية حتى أنتقي ما يلزمني للبحث ، فاتصلت بجهات معنية كالدائرة الأثرية ودار الثقافة فلم أجد ما أبحث عنه ولهذا أوجه ندائي للمسؤولين عن هذه المعالم الأثرية بأخذ أشرطة وثائقية وصور لهذه المعالم الأثرية ولما لا تكون إشهارية مساهمة في السياحة والتعريف بالآثار المحلية للمنطقة .

لهذه الإشكالية المتفرعة لعدة أسئلة تتبعت منهية التاريخ الوصفي في بداية ومنتصف الموضوع ، ذلك لأننا تناولنا لمحة تاريخية وجغرافية مع لمحة وجيزة للأوضاع السياسية للضفتين في هذه الفترة . ثم قمنا بسرد وصفي لمختلف الميادين والمجالات التي مسها الفن الزخرفي في كلا الضفتين ، ثم انتقلت في آخر البحث إلى المنهج التحليلي المقارن بين الفن الزخرفي في الأندلس وتلمسان . ثم منهج إستنتاجي لهذه المقارنة لمعرفة درجة التأثير والتأثر بين العدوتين المغربية والأندلسية وخاصة تلمسان .

طريقة تقسيم خطة البحث مستوحاة من تصور شامل لمنهجية إعداد هذا البحث مراعيا في ذلك الصيرورة التاريخية للأحداث الزمنية . وربط محتوى البحث وهذه الأحداث بالظرف المكاني والزماني للحدث أي تقيدت بفترة زمنية محددة فكانت بإشارة خفيفة لما قبل الفتح الإسلامي ، وركزت على تفاعل هذه الأحداث في عز الدولة الإسلامية من القرن الأول الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري . تناولت في المدخل الموقع الجغرافي لكل من الضفتين ثم الصلة التي تربط بينهما قبل وبعد الفتح الإسلامي ثم انتقلت في الفصل الأول إلى الأندلس

وعلاقاتها بالدويلات المجاورة واخترت ثلاث دويلات كنماذج الرستميين ، المرابطين ، الموحدين ثم الهجرات الأندلسية لبلاد المغرب . أما الفصل الثاني فتناولت فيه مكانة الأندلس الفنية والمجالات التي مسها الفن الزخرفي في الأندلس ثم انتقلت إلى الفصل الثالث لدراسة الضفة المغربية وهنا اخترت تلمسان نموذجًا للدراسة فقمت بالتعريف بها جغرافيا وتاريخيا ثم تناولت الميادين التي شملها الفن الزخرفي . وأخيرا الفصل الرابع تناولت فيه عملية الامتزاج بين أسلوبي الفن الزخرفي للمغرب والأندلس مع أهم ملامح التأثير والتأثر بينهما وكذا أهم الجوانب المتأثرة في باقي الفنون الأخرى مع تعريف موجز للفن المدجن . وانتهيت بخاتمة مبرزا فيها نتائج هذا الامتزاج وما مدى مشاركته في دفع عجلة الحضارة في بلاد المغرب عامة وتلمسان خاصة .

أتمنى أن تكون ثمرة هذا المجهود المتواضع مساهمة منا في إثراء تراثنا الفني والثقافي وتدعيم رصيدنا الحضاري بتسجيل وتدوين مختلف الآثار الفنية الثابتة و المنقولة منها ، قصد تثبيت وإرساء أسس هويتنا الصحيحة .

والله ولي التوفيق

مدخل

1- الموقع الجغرافي لبلاد المغرب.

2- الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس.

3- صلة المغرب بالأندلس قبل وبعد الفتح الإسلامي.

1 – الموقع الجغرافي لبلاد المغرب:

« هو الإقليم الرابع أعدل الأراضي ميزاجاً ، وأفضلها نتاجًا ، ما بين إفريقية والسوس الأدنى من المغرب الأقصى »[1] . شمال لإفريقيا بكامله ما عدى مصر ، وقد أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب على شمال إفريقيا اسم بلاد المغرب وقد يعلل هذا بأن هذه البلاد تغرب فيها الشمس بعد طلوعها من المشرق أو لأنها واقعة في غرب الخلافة الإسلامية في الشام والعراق ومصر[2] .

أما مصطلح المغرب فيرتبط بظهور الفتنة بين علي ومعاوية أي قبل منتصف القرن الأول الهجري ويظهر أنه استعمل في هذه الفترة للدلالة على الجزء الغربي للعالم الإسلامي الذي كان يشمل مصر بملحقاتها [3].المراد بلفظ المغرب هو كل ما يقابل المشرق من بلاد ، وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله ، فجعله البعض يشمل بلاد شمال إفريقيا إلى اسبانيا الإسلامية أي الأندلس وجميع الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مثل صقلية ، جنوب إيطاليا ، جزيرة سردينيا وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية وهي ما يورقة ومينورقة ويابسة ، ويذهب فريق آخر مثل المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي إلى اعتبار مصر أيضًا ضمن مجموعة البلاد المغربية باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية بهذه المنطقة الغربية في الفترة الإسلامية الأولى [4] .

---

(1) أبو زكريا يحيى بن خلدون ، بغية الرواد ، ص: 84.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص: 18.

(3) لقبال موسى ، المغرب الإسلامي ،ص:13.

(4) أحمد مختار العبادي ،في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص:219.

يروي المسعودي أن العباسيين قسموا ممتلكاتهم إلى قسمين : المغرب ويشمل الشام ومصر وإفريقيا وما يليها غرباً .والمشرق ويشمل بلاد فارس وما يليها شرقًا ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السالفة فإن جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والمشرق ولهذا عرفت باسم باب المغرب (1) .

وهكذا نرى أن مدلول المغرب في العصور الوسطى كان أوسع من مدلوله اليوم خصوصا بعد أن خرج منه القسم الأوربي وأصبح قاصرا إلا على بلاد شمال إفريقيا فقط أو ما يسمى بالمغرب الكبير (خريطة رقم 1) ولقد اصطلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق : المغرب الأدنى ، المغرب الأوسط ، المغرب الأقصى (2) .

فالمغرب عبارة عن جزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب يحيط بها البحر الأبيض المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غربًا ، كذلك يحدها من الشمال سلسلة جبال الريف التي تمتد من المحيط غربًا إلى قرب تلمسان شرقًا ، أما في الجنوب فهناك سلسلة الجبال الأطلسية التي تمتد من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى ، ويليها جنوبًا الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب عن السودان وفي الجزء الغربي من هذه الصحراء أي المنطقة المتاخمة للمحيط الأطلسي جنوب المملكة المغربية ، توجد صحراء شنجيط وهي بلاد موريطانيا الحالية (3) .

---

(1) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص:220.

(2) أحمد مختار العبادي ،المرجع نفسه ، ص: نفسها .

(3) أحمد مختار العبادي، المرجع نفسه ، ص: 222.

التسمية القديمة لسكان المغرب هي أمازيغ وهي كلمة بربرية معناها الرجل الحر الخشن ، أما كلمة بربر التي أطلقت على سكان المغرب فهي كلمة دخيلة أطلقها عليهم من غزاهم من الأمم كالرومان والإغريق والعرب[1].« يمثلون سكان المغرب الأقدمين وقد ملؤوا سهوله وأريافه وضواحيه وأمصاره وجباله وتلاله ، وينتسبون فيما يزعم نسّابتهم إلى جد أعلى يسمّى مازيغ بن كنعان بن ... حام ويميز أن النسابة العرب بين جذمين كبيرين منهم يختلفان في نوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، الجذم الأول ويسمى قبائل البرانس[*] والجذم الثاني ويسمى قبائل البتر [*] »[2] .وهذه النسبة الأخيرة إلى الكنعانيين وإلى القيسية وتعني أن البربر قبائل مشرقية الأصل هاجرت إلى المغرب في ظروف تاريخية معينة وهذا ما يقوله النسّابة فعلاً [3] .

---

(1) أحمد مختار العبادي، نفس المجرع السابق ، ص:223.

(*) يعرف أحمد مختار العبادي البربر البرانس على أنهم البربر المستقرون الذين يعيشون على الزراعة ، انظر أحمد مختار العبادي،المرجع نفسه ، ص: نفسها .

أما سعد زغلول عبد الحميد فيعرف البربر البرانس على أنهم البربر الذين يرتدون البرنس الطويل الذي له غطاء الرأس ، انظر سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ، ج1 ص: 90.

(*) كما يعرف أحمد مختار العبادي البربر البتر على أنهم البربر الرحل سكان البادية الذين يعيشون على الرعي والتنقل . انظر أحمد مختار العبادي ، المرجع نفسه : ص: نفسها

أما تعريف سعد زغلول عبد الحميد فيرى أن البربر البتر كانوا يلبسون برنسا قصيرًا دون غطاء للرأس أنظر سعد زغلول عبد الحميد، المرجع نفسه : ص: نفسها

(2) لقبال موسى ، نفس المرجع السابق ، ص: 16.

(3) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع نفسه ، ج1 ص: 81.

2 ـ الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس :

« مبذؤه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشامي مارًا على المشرق ، وفي هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية إشبانيا، وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها مثلث و تظيق من ناحية المشرق حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس »[1] .

تقع شبه جزيرة إيبيريا في جنوب غرب أوروبا ، يحدها من الشرق البحر الأبيض المتوسط ومن الغرب المحيط الأطلسي يفصلها عن فرنسا شمالاً سلسلة جبال البرت التي تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين مثل ممر هندايا في الغرب وممر قاطالونيا في الشرق وممر شيزورا في الوسط ، لكن بالرغم من وجود هذه الممرات فإن جبال البرت قد جعلت إسبانيا في شبه عزلة عن بقية أوروبا[2] (خريطة رقم 2) .

أما فيما يخص التسميات لهذه الرقعة الجغرافية فقد اختلفت باختلاف الروايات مع شيء من التقارب فمثلا ابن الأثير يقول :« أول من سكنها قوم يعرفون بالأندلش فسمي البلد بهم ثم عُرب ذلك بسين مهملة ، والنصارى يسمون الأندلس إشبانيا باسم رجل صلب فيها يقال له إشبانش»[3] .

تقع هذه البلاد في شبه الجزيرة القائمة في الزاوية الجنوبية الغربية من أوروبا وقد كانت تعرف عند اليونان باسم ايبيريا وعند الرومان الذين حكموها فترة من الزمن باسم اسبانيا ، ثم أغارت عليها القبائل الجرمانية التي اجتاحت

---

(1) أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، ص:245.

(2) أحمد المختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص/ 228.

(3) ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ج 4 ص: 119.

أملاك الدولة الرومانية في أوروبا وغزاها أولا الوندال وتركوا اسمهم عليها فعرفت ببلاد الوندال أو فاندلوسيا ومنها كلمة الأندلس[1] .

وكلمة أندلس اشتقها العرب من كلمة أندلوش وهي اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي واستقرت في السهل الجنوبي الإسباني وأعطته اسمها ، ثم جاء العرب الذين عربوا هذا الاسم إلى الأندلس [2] .

تضاريس شبه جزيرة إيبيريا تشبه تضاريس المغرب إلى حد كبير ، مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب حتى أن العرب سموها بجزيرة الأندلس مثل جزيرة المغرب ، كذلك نجد جبال البرتات في شمال إسبانيا تشبه في تكوينها جبال الأطلس في المغرب وجبال الثلج المعروفة باسم شلير حول غرناطة تشبه جبال الريف في شمال المغرب ، وسهل الأندلس في الجنوب يقابل سهل تازة وسبو في المغرب ، كما تتخللها أنهار وأودية من الغرب أو العكس مثل نهر الإيبرو ونهر التاخو في الجنوب ، ونهر الوادي الكبير الذي تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة ، اشبيليا وقادس [3] .

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص:27.

(2) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 227.

(3) أحمد مختار العبادي ، المرجع نفسه ، ص: 229.

3 ـ صلة المغرب بالأندلس قبل وبعد الفتح الإسلامي:

مما لا شك فيه أن وحدة المناخ وتشابه التضاريس عامل طبيعي يفرض تشابه وتقارب في الحياة المهنية والحرفية ، كالزراعة والتجارة دون أن ننسى العامل الجيولوجي والعامل التاريخي . علاقة اسبانيا بالمغرب الإسلامي قديمة وعريقة مما سمح لبعض المعاصرين أن قال تبدأ افريقيا من جبال البورتات أو البرت وفي القول مبالغة طبعًا ، إلا أنه يبرز مدى الصلات الوطيدة التي تربط بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط ببعضهما جغرافيا إنسانيا وحضارياً (1) .

يتفق بعض علماء الجيولوجيا في الاعتقاد أن بلاد المغرب الإسلامي كانت متصلة باسبانيا في أثناء العصور الجليدية أو العصر الحجري القديم، وعلى هذا الأساس يفترض أن عبور الإنسان العاقل " Homo Sapiens " إلى أوروبا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد في منطقة المضيق " مضيق جبل طارق " وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف (2) . أما تاريخيا كما ورد في نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي : « ... وكان أهل المغرب الأقصى من الأمم السالفة يغيرون على أهل الأندلس فيلحقون بهم الأضرار ، وأهل الأندلس أيضًا يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة ، إلى أن كان زمن الإسكندر، ووصل الأندلس وأعلموه بما هم عليه من التناكر مع أهل سوس ، فاحضر العدة والمهندسين وقصد مكان الزقاق وكان أرضًا جافة فأمر المهندسين بوزن الأرض ووزن سطوح ماء البحرين، ... ثم أمر أن تحفر الأرض التي بين طنجة والأندلس ... وطول المجاز

(1)عبد العزيز الدولاتي ، مسجد قرطبة وقصر الحمراء ، ص: 12.

(2) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 232.

المسمى بالزقاق إثنى عشر ميلاً ... » [1] .

ولعل من أهم مظاهر الاتصال كذلك بين الضفتين المغربية والإسبانية في العهد الروماني أي ما قبل الفتح الإسلامي هو انتشار المسيحية بهما في وقت واحد تقريبًا [2] . كما أن التركيبة البشرية التي تتكون منها الأمة الإسبانية تعد مزيجًا بين الأجناس والأعراق التي مرت أو استوطنت بهذه الأرض من فنيقيين ، وإغريق، وبربر، ورومان وقوط ، وعرب وهم من عمروا طويلاً بهذه الجزيرة بحيث لا زالت أنسابهم ودماؤهم تجري في عروق أبناء هذه الأمة إلى اليوم . وبمجئ الإسلام تعززت هذه الروابط أكثر فأكثر بما انظاف إليها من أسباب الإتصال الجديدة كاللغة والدين فانصهرت الضفتان في بوثقة واحدة وتم الاندماج بين سكان الضفتين بالمساكنة والمصاهرة فقويت وشائج القربى .

من المفيد أيضًا أن نخصص لهاتين الضفتين الإسلاميتين حيزا نشرح فيه أساليبهما الفنية المتشابهة والتي يتمم بعضها الآخر ، وإذا كان الفن الإسلامي بمجموعه يتميز بأنه فن يجمع بين الفن العربي الأصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الإسلام أو ضمّه الحكم العربي الإسلامي ، فإن هذه الميزة تظهر في المغرب والأندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري[3] .

---

(1) أبو عبد الله الشريف الإدريسي ، نفس المصدر السابق ، ص:246.

(2) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص:238.

(3) أنور الريفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، ص:19.

الفصل الأول

1 ـ الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس

2 ـ العلاقات المغربية الأندلسية

أ ـ في العهد الرستمي

ب ـ في العهد المرابطي

جـ ـ في العهد الموحدي

3 ـ الهجرات الأندلسية

1– الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس: X

يتصف فتح المغرب دون الفتوحات العربية الأخرى بالصعوبات الشديدة والمقاومة العنيدة من جانب أهل البلاد وهم البربر ، ذلك أن المغاربة مثل العرب أهل نجدة وقوة لا يرضون بالضيم ولا يرضخون للذل(1). لما استقر سلطان العرب في مصر اضطرت الضرورة الحربية والي مصر عمر ابن العاص إلى التوجه بنظره نحو إقليم برقة ، ثم كتب يستأذن الخليفة في التقدم إلى إفريقيا ، نهاه لتخوفه على مصير المسلمين وسط أرض مجهولة (2) . بقيت الجيوش الإسلامية المتمركزة ببرقة وطرابلس تؤمن الثغور الإسلامية لحدود مصر الغربية من خطر البزنطيين المحذق بالمسلمين .

بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب(*) سنة أربع وعشرين للهجرة جاء الخليفة عثمان بن عفان الذي قرر مواصلة الفتوحات وبعث الجيش لفتح المغرب بقيادة عبد الله بن سعد أبي سرح ، فلما سار إلى مصر أمده عمر بن العاص بالجنود فغنم هو وجنده ، فلما عاد عبد الله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية ، فأذن له في ذلك (3) .أرسل أخاه من الرضاعة على رأس حملة قوية اجتاز بها طرابلس

---

(1) سعد زغلول عبد الحميد، نفس المرجع السابق ، ص:129.

(2) لقبال موسى، نفس المرجع السابق ، ص:18 –19.

(*) عمر بن الخطاب : هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ولي الخلاقة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشر من التاريخ. (ومات) طعن لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من التاريخ وهو ابن ثلاث وستين سنة.
انظر ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ج4 ، ص: 269.

(3)ابن الأثير، نفس المصدر السابق ، ج3 ص: 44.

ثم واصل سيره في افريقية إلى أن التقى بجيوش البيزنطيين في مكان يسمى سبيطلة في سنة سبع وعشرين للهجرة ، ولقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة انتصارا حاسمًا وقتل القائد البيزنطي [1] . يؤكد ذلك ابن الأثير :« ... فسار بهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى افريقية فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب ... نحو افريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة... والتقى المسلمين بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة ... حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير ، قتله الزبير وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ....» [2] .

لما ولي معاوية[*] بن أبي سفيان أمر الخلافة قرّر مواصلة فتح افريقية وعهد بذلك الأمر إلى قائده معاوية بن حديج الكندي سنة45هـ خمس وأربعين للهجرة[3]. مضى ابن حديج فوصل إلى افريقية وهي نار تضطرم وكان معه عسكر عظيم فنزل عند قمونية وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل فلمّا سمع بهم معاوية سيّر إليهم جيشًا من المسلمين فقاتلوهم فانهزمت الروم [4] .

---

(1) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 246.

(2) ابن الأثير، نفس المصدر السابق ، ج3 ، ص: 230.

(*) هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكنيتة أبو عبد الرحمن،أمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، مات معاوية بدمشق يوم الخميس لثمان بقنين من رجب سنة ستين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، كانت ولايته تسعع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة وعشرون يومًا. ـــ انظر ابن عبد ربه الأندلسي، نفس المصدر السابق ، ص:362.

(3) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص:248.

(4) ابن الأثير، نفس المصدر السابق ، ج3 ص:45 ـــ46.

غير أن هذا القائد معاوية بن حديج لم يستمر طويلاً لإخضاع افريقية إذ عزله الخليفة معاوية وولى مكانه القائد التابعي المشهورعقبة بن نافع الفهري وقد استمرت ولايته من سنة خمسين للهجرة إلى سنة خمس وخمسين للهجرة وكان إختيار معاوية

لعقبة بن نافع اختياراً موفقًا لأن عقبة يعتبر من أوائل المجاهدين في المغرب [1] . يؤكد ذلك ابن الأثير بقوله: « والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة أنّ ولاية عقبة بن نافع الفهري على افريقية كانت هذه السنة، وبنى القيروان ثم بقي إلى سنة خمس وخمسين للهجرة ووليها مسلمة بن مخلد وهم أخبر ببلادهم، وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم قالوا : أن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج على افريقية واستعمل عليها عقبة بن نافع وكان مقيمًا ببرقة ... وله في تلك البلاد جهاد وفتوح»[2] ، في الوقت الذي أتم فيه عقبة بن نافع بناء القيروان أتى الأمر بعزله[3] فقد ولي مكانه رجلٌ لا يقل عنه مهارة وخبرة وهو أبو المهاجر دينار الذي امتدت ولايته على افريقية سبع سنوات(55هـ 62هـ) لم يكن أبو المهاجر مثل عقبة محارباً ممتازًا، لكنه سياسيًا بارعًا، ترك سياسة العنف مع البربر ولجأ إلى سياسة اللين والمداراة معهم محاولاً استمالتهم عن طريق نشر الإسلام بينهم، وقد نجحت هذه السياسة نجاحًا كبيرًا، إذ اعتنق الإسلام زعيم البرانس واسمه كسيلة وكان نصرانيا متحالفًا مع البزنطيين ضد العرب، لم تكن لعقبة تلك النظرة السياسية الهادئة ، التي كانت لأبي المهاجر ، بل كان رجلاً عنيفًا متشبعًا بذلك الحماس الصوفي الديني الشديد الذي جعله يسخر من سياسة سلفه، ويستهين

---

(1) د،أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص:248.

(2) ابن الأثير ، نفس المصدر السابق ، ج3، ص:46–47.

(3) سعد زغلول عبد الحميد ، نفس المصدر السابق ، ص:187.

بقوة كسيلة وأصحابه بل يتعمد الإساءة إليهم [1] .

لقد توغل عقبة في بلاد السوس في أقصى المغرب وخاض هناك معارك عنيفة مع قبائل البربر فقد فيها طائفة من خيرة رجاله . استطاع كسيلة الفرار من جيش عقبة وأخذ يتحين الفرصة للإنتقام منه ، وهنا يظهر الزعيم البربري كسيلة في حشد كبير من البزنطيين والبربر، وأمام هذا الحشد الهائل من الروم والبربر أحس عقبة بنهاية الأمر ودارت المعركة عند تهودة في سنة أربع وستين للهجرة ، واستشهد عقبة وابو المهاجر دينار ولايزال موضع تهودة يعرف اليوم بسيدي عقبة وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل بالقرب من مدينة بسكرة [2] . استشهاد عقبة وأصحابه شحذ همم وعزائم المسلمين على متابعة الفتح وإيجاد خطط عسكرية ناجحة من شأنها أن تؤمن لهم الإنتصارات وتضمن لهم النجاح الكامل في تحويل البربر عن كفرهم وجاهيلتهم ، فقضى حسان بن النعمان[*] وموسى بن نصير [*] على كل من وقف في طريقهم مثل كسيلة والكاهنة ورؤساء آخرين وحولوا المغرب بلدًا عربيًا اسلاميًا [3] .

---

(1) أحمد مختار العبادي، نفس المرجع السابق ، ص:250.

(2) أحمد مختار العبادي ، المرجع نفسه ، ص: 251—252.

(*) حسان بن النعمان: هو حسان بن النعمان الغساني استعمل واليا على افريقيا بعد مقتل زهير بن قيس ثم ابن الزبير وولي على افريقيا سنة اربع وسبعين للهجرة — انظر ابن الأثير، المصدر السابق ، ج4 ص: 31.

(*) موسى بن نصير : استعمل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير على افريقيا فوصل إلى افريقيا وبها صالح الذي استخلفه حسان على افريقيا ، فلما وصل عزل صالح ، كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين للهجرة استعمله على افريقيا عبد العزيز بن مروان — انظر ابن الأثير، المرجع نفسه الجزء نفسه ، ص:112.

(4) محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور ، ص:17.

بعد أن وطد موسى نفوذه في المغربين الأدنى والأوسط ، قام بغزو المغرب الأقصى حتى شواطئ المحيط الأطلسي، ولم يستعص عليه سوى فتح مدينة سبتة لمناعتها . واكتفى بأن عين مولاه طارق بن زياد على ثغر طنجة المجاور لها . من كل ما تقدم نرى أن فتح العرب للمغرب استغرق مدة طويلة تقرب من الثمانين عامًا ، وهي مدة طويلة نسبيا إذا ما قورنت بالفتوحات الإسلامية الأخرى في الأراضي الفارسية والبيزنطية ، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى مناعة بلاد المغرب، وشدة ميراس أهلها وشجاعتهم في القتال وهذا أمر ملموس حتى اليوم (1) .

كان دخول طارق الأندلس في رمضان سنة اثنين وتسعين للهجرة ، وكان سبب دخوله الأندلس أن تاجرًا من تجار العجم يسمى يليان ، كان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر، فتوفيت زوجة التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لوذريق بالتوجه إلى العدوة فاعتذر له بوفاة زوجته وبأنه ليس له أحد يترك إبنته معه، فأمر بإدخالها القصر فوقعت عين لوذريق عليها فاستمنحها قبالها، فأعلمت أباها بذلك عند قدومه . فقال للوذريق : تركت خيلاً وبزاة لم ير مثلها، فأذن له في التوجه فيها و بعث معه المال فقصد إلى طارق بن زياد و رغبه في الأندلس و ذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة فكتب طارق ابن زياد إلى موسى بن نصير يعلمه بذلك فأمره بالدخول فحشد طارق جيشه وأعده للمواجهة(2)

ومنه فإن قرار الفتح لم يكن عشوائيا بل كان نتيجة تخطيط مسبق من قبل قادة الفتح والخليفة. كان فتح المسلمين لاسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضًا أقرّها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق باتفاق مع قائده بالمغرب موسى بن نصير

---

(1) أحمد مختار العبادي، نفس المرجع السابق ، ص: 255 ــ256.

(2) أبو بكر بن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص: 22

وفي ذلك يقول عريب بن مسعد : « فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض إليه موسى بنفسه ، فأشار عليه الوليد أن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بجيوش المسلمين» قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا لجس النبض (1) . أهمها غارة طريف في رمضان سنة واحد وتسعين للهجرة على ساحل اسبانيا ونزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سبيًا ومالاً كبيرًا ورجع سالمًا فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الاسبانية كان صحيحًا . فأعد جيشًا كبيرًا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة قائده طارق بن زياد ونائبه على طنجة ، وبهذا نرى أن فتح المسلمين لاسبانيا لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية بل كان فتحًا منظمًا حسب خطة موضوعة من قبل (2) .

أما رواية ابن الأثير فيقول :« وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير في اثني عشر ألفًا فلقي ملك الأندلس واسمه أذرينوق ، فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الأذرينوق ... فاقتتلو قتالا شديدًا فقتل طارق الأذرينوق وفتح الأندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة» (3) . فلما جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكورة الجزيرة ثم تقدم فلقي لوذريق فكان ما تقدم ذكره ، ثم تقدم إلى استجه إلى قرطبة ثم إلى طليطلة ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذي دخل منه جليقة حتى انتهى إلى اشترقة . وشدّ موسى بن نصير حصون الأندلس واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس وأسكنه اشبيلية وخلف مع

---

(1)أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 264.

(2) أحمد مختار العبادي، المرجع نفسه ، ص: 265.

(3) ابن الأثير ، نفس المصر السابق ، ج4 ، ص:119.

حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقام عبد العزيز بفتح ما بقي من مدائن الأندلس[1] .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيرة ايبريا في يد المسلمين ولم يبق منها إلى بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهي كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبير، اما شرق الأندلس فقد فتح على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف على ولاية الأندلس [2] .

ومنه فقد أصبحت الأندلس تحت راية الخلافة الإسلامية باختلاف نظم حكمها واختلاف الأسر المتعاقبة على الحكم بالأندلس لمدة ثمانية قرون حتى دبّ الضعف فيها وتمكن منها الأعداء المسيحيون الإسبان منتهزين فرصة تناحر أمراءها واختلافهم على الحكم واقتتالهم من أجل الخلافة (خريطة رقم3) . قويت حركة الاسترداد المسيحي وضعفت شوكة المسلمين وتخاذلوا وزال سلطانهم وأصبحوا فارين بأنفسهم وذويهم من بطش الحركات الاستردادية المسيحية المجتاحة، ومحاكم التفتيش والتجسس التي انتشرت بالأراضي الإسلامية في المغرب والأندلس

---

(1) ابن القوطية ، نفس المصدر السابق ، ص:23 ـــ24.

(2) أحمد مختار العبادي، نفس المرجع السابق ، ص:281.

2 ـ العلاقات المغربية الأندلسية :

أكثر عبد الرحمن الداخل من شراء الموالي والعبيد والعجم كما أنه استقدم أعدادًا كبيرة من بربر زناتة من العدوة المغربية وأحسن إليهم وأدخلهم في ديوان الجند وجمع هؤلاء وأولئك وكانوا رهن اشارته [1] . وهكذا وعلى مدى قيام دولة أو خلافة الأمويين بالأندلس كانت العلاقة القائمة ودية وذات وشائج تتوجها المصالح المشتركة والمتبادلة بين الأمويين والأندلس وأمراء دويلات المغرب سواء المغرب الأقصى أو الأدنى ، ويمكن تمييز هذه العلاقة وخاصة من الجانب الأندلسي تجاه الجانب المغربي في عاملين اثنين هامين هواعتبار الأندلس للمغرب موردًا لا ينظب من الجند المقاتلين من البربر الذين يمتازون بالروح العالية والتفوق في القتال يستمد منه الجيش الأندلسي حاجته من المقاتلين لصد العدو الإسباني المسيحي ولاخماد الفتن والقلاقل الداخلية . والعامل الثاني هو استغلال عداء هذه الدويلات المغربية للدولة العباسية في المشرق وأحسن مثال على ذلك العلاقة التي كانت بين الأدارسة العلويين في فاس والأمويين بقرطبة . بحيث أن الخليفة الحكم بن هشام أمير قرطبة أراد أن يستغل فرصة عداء الأدارسة للدولة العباسية وأمراء القيروان لأن كلا من الأمويين في الأندلس والأدارس العلويين بالمغرب الأقصى يشتركون في عداء بني العباس ، فرغب الحكم بن هشام في مواصلة المولى ادريس الثاني وبعث له بسفارة تهنؤه باعتلائه العرش وفاتحه في موضوع مهم وهو أن يكون يدًا واحدة ضد خصومه الأغالبة [2] .

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، ص:67.

(2) عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه ، ص:91.

أما علاقة الأمويين بالأندلس مع الرستميين بتاهرت فكانت علاقة متميزة نظراً لما كان يكنه عبد الرحمن الداخل للرستميين من اعتراف بالجميل والمؤازرة في بداية دعوته للأمويين وإقامة الدولة الأموية بالأندلس رغم اختلافهما في المذهب يتضح أن المصلحة المتبادلة السياسية والاقتصادية قد طغت على الخلاف السياسي والمذهبي بين الإباضيين وأمويي الأندلس ، فارتبطت العاصمتان بعلاقات متينة من الود وحسن الجوار (1) . كما أقامت فيما بعد أي في الفترات اللاحقة علاقة بين المرابطين والموحدين وكانت مبنية دائمًا على أساس العاملين السابقين اللذين أشرنا إليهما، رغم أن العلاقات بهاتين الدويلتين كانت تتسم في بعض الأوقات بالفتور والجمود وتتخللها مناوشات ، لكن كلما كان الخطر خارجياً والعدو واحدًا وخاصة المسيحيين ، كانت تعود العلاقات إلى الصفاء والتلاحم والإعانة وسوف نتعرض بالتفصيل إلى أمثلة من نوع هذه العلاقات لبعض الدويلات في المغرب على اختلاف الفترات .

أ ــ في العهد الرستمي

بحكم موقع دولة بني رستم الجغرافي في المغرب الأوسط وظروفها السياسة والمذهبية توجهوا إلى بني أمية وعقدوا معهم تحالفًا وديًا ، لأنهم كانوا يتوسطون فكي كماشة إن صح التعبير، العدو الشرقي المتمثل في الأغالبة والعدو الغربي المتمثل في الأدارسة وبني سليمان العلويين (2) .

هذا التحالف الودي له أحداث سابقة تبرره رغم اختلاف الأمويين والرستميين في المذهب ، فلما فر عبد الرحمن الداخل من قبضة العباسيين ونجا بنفسه في

---

(1) جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص: 180.

(2)عبد العزيز فيلالي، نفس المرجع السابق ، ص: 96.

اتجاه المغرب الإسلامي كان الرستميين من ضمن القبائل التي احسنت معه المعروف باستقبال قبائل تاهرت له وترحيبها به وهي اباضية المذهب ، ويبدو أن ذلك لا يخرج عن طبيعتها وعاداتها ، كما عبر عن ذلك المقري عن ابن الحكم بقوله :« وآل أمره في سفره إلى أن استجار بني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط»[1] . وكان من الطبيعي والحالة هذه أن يحدث تقارب ودي ، وربما عسكري وسياسي واقتصادي وحضاري بين بني رستم في تاهرت وبني أمية في الأندلس، تدفعهم في ذلك مصالهم السياسية ، ودفع العدو المشترك ، إذ أن الخصومة كانت على أشدها بين العباسيين والأغالبة ضد بني أمية في الأندلس من جانب ، وبين العباسيين والأغالبة ضد الرستميين من جانب آخر ، وكذلك تجمعهما عداوى الأدارسة من جانب ثالث [2] .

إن رباط الود الذي أقره عبد الرحمن الداخل مع الرستميين يعتبر بمثابة مكسب كبير للدولة الأموية الفتية للأندلس ، باعتبارها محاطة بالخطر من كل جانب ، الخطر الوافد من المشرق المتمثل في العباسيين ، وعين تترقب تحركات الدويلات أو القبائل الأخرى بالمغرب المتمثلة في المغرب الأدنى حيث يوجد الأغالبة والمغرب الأقصى حيث يوجد الأدارسة . لم تقتصر سياسة التقارب هذه بين تاهرت وقرطبة على النواحي السياسية فقط بل شملت أيضًا النواحي الإقتصادية والفكرية والعسكرية ، ولعل محاصيل تاهرت الزراعية كانت تجد طريقها في كثير من المناسبات إلى مخازن قرطبة ولا سيما في سنوات المحن التي عانت منها الأندلس كذلك استفادت قرطبة بكل ما تحتاجه من المقاتلين الجزائريين

---

(1) جودت عبد الكريم يوسف ، نفس المرجع السابق ، ص: 126ـ 127.

(2) عبد العزيز فيلالي ، نفس المرجع السابق ، ص: 96.

والمغاربة على وجه العموم ، وخاصة فرسان زناتة التي بنت بهم جيشًا ، ولم تتردد حكومة تاهرت في إمداد الأندلس بهؤلاء المقاتلين المحاربين الأشداء بصورة مستمرة ، بل ورد في بعض النصوص ما يشير إلى تواجد رجال الأسرة الرستمية في وظائف عالية في بلاط الإمارة الأموية في قرطبة[1] . من بين هذه الشخصيات الرستمية التي كشفت المصادر عن وجودها في الأندلس عرفنا أسماء أربعة منها وهم : سعيد بن عمر بن عبد الرحمن بن رستم وابنه محمد وعبد الرحمن بن رستم ورابع يدعى القاسم [2] .

ما يمكن استخلاصه من خلال هذه المعطيات هو أن مكانة الرستميين كانت تكتسي طابعا خاصًا لدى الأمويين بالأندلس ، ونشاطر جملة المؤرخين الذين يرون في طابع هذه العلاقة بين الأندلس وتاهرت نوعا من الاعتراف ورد الجميل للرستميين، الذين آزروا دعوة بني أمية بالأندلس وأجاروا أميرها الأول عبد الرحمن الداخل وكانوا له الدرع الواقي من الهجمات والمؤامرات الآتية من المشرق سواء من العباسيين أو الأغالبة. وفي وصف لهذه العلاقة استقبال للوفد الرستمي في قرطبة استقبالا غاية في الاحتفال والاكرام وكان وصولهم يومًا مشهودًا إلى قرطبة بحيث بالغ الأمير عبد الرحمن الأوسط [*] في حفاوة الاستقبال والترحيب بالوفد الرستمي وكان معهم كريماً سخيًا إذ أنفق عليهم حسب ما يذكره

---

(1) عبد العزيز الفيلالي ، نفس المرجع السابق ، ص:98.

(2) جودت عبد الكريم يوسف، نفس المرجع السابق ، ص: 134.

(*) عبد الرحمن الأوسط : ولي عبد الرحمن بن الحكم في ذي الحجة سنة ست ومائة للهجرة فملك احدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر ، ومات ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وهو بن اثنتين وستين سنة ــ انظر بن عبد ربه الأندلسي، نفس المصدر السابق،ج4 ، ص: 493.

بن سعيد ألف ألف دينار وأغدق عليهم الهدايا الثمينة ثم أعادهم إلى بلدهم [1] .

فواصلوا سياسة التواصل الودي التي انتهجها الأمير محمد مع الرستميين أصحاب تاهرت وبني مدرار أصحاب سجلماسة وبني صالح أصحاب ناكور ووطدوا العلاقات مع بقايا الرستميين وبني صالح الذين ظلوا يناوئون الفاطميين بعد سقوط تاهرت وناكور في أيديهم [2] .

لم تتوقف نوعية هذه العلاقات على تبادل الزيارات والهدايا والمؤازرة في الشدائد والمحن فقط بل تعدت ذلك وشملت ميادين أخرى بالإضافة إلى العسكرية والسياسية والإدارية . لقد استعان الأمويون بالجزائريين في إدارة أعمالهم وقيادة جيوشهم واستعان الرستميون أيضًا بالخبرات الأندلسية في بلاطهم منذ أيام المؤسس الأول عبد الرحمن بن رستم [*] حتى أصبحوا أعضاء بارزين في مجلس الشورى الأباضي التاهرتي ، وقد اشتهر من بين هؤلاء الوافدين الأندلسيين إثنان هما: عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي،وقد كان من الشيعة أشخاص الذين رشحهم الإمام عبد الرحمن بن رستم لإمامة الأباضية في تاهرت قبل وفاته[3].

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، نفس المرجع السابق ، ص: 98.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج1 ص:81.

(*)عبد الرحمن بن رستم : أجمع المؤرخون على أن والده رستم من أصل فارسي ، واختلفوا في نسبه فاعتبره بعضهم من أبناء رستم القادسية ، وافعتبره آخرون من أبناء الملوك الساسانيين فجعلوه عبد الرحمن بن رستم بن بهران بن السابور بن بابك بن سابودي الأكتاف الملك الفارسي . ولد عبد الرحمن في العراق في أواخر القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) توفي في 168هـ /784م أو سنة 171هـ /787م ، ــ انظر جودت عبد الكريم يوسف ، نفس المرجع السابق ، ص: 62.

(3) عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه ،ص: 100.

شكلت التجارة عصب الحياة الاقتصادية بين تاهرت وقرطبة ، ويبدو أن عملية الانتقال للتجارة بين الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي كان أمرا معتادًا قبل الفتح االإسلامي ، وبذلك فإن عمليات التبادل التجاري بين قرطبة وتاهرت هي استمرار لما سبق[1] .

استمر التمثيل الدبلوماسي والتشاور السياسي بين قرطبة وتاهرت وغدت هذه المراسلات بينهما تفيض بأسمى وشائج المودة والتضامن . كما حرص الأمويون في الأندلس على كسب صداقة الدويلات ، التي انشئت بجوار العلويين الأدارسة من جهة ، والأغالبة من جهة أخرى والحد من نفوذهم المتزايد [2] .

ب ــ في العهد المرابطي:

تنتمي الدولة المرابطية إلى قبائل صنهاجة التي كانت تستقر بأعماق الصحراء بأرض موريتانيا الحالية ، وأمير صنهاجة حينئذ يحيى بن ابراهيم القيدالي يرجع إليه أمر كل من قبائل لمتونة وقدالة ومسوفة ، فكان إبراهيم هذا محبًا للعلم ومجدًا في طلبه فخرج من بلاده سنة 427هــ إلى المشرق، فحج وعاد سنة 428هــ مصحوبًا بعبد الله بن ياسين الجزولي وكان عالمًا فاضلاً، فأخذ ينشر في القوم تعاليم الدين الصحيح ويبث فيه حبّ الجهاد في سبيل الله ونشر الدين والذود عنه [3] .

يبدأ تاريخ المرابطين في جناح المغرب الأيمن في الصحراء الغربية صحراء

---

(1) جودت عبد الكريم يوسف ، نفس المرجع السابق ، ص: 152.

(2) عبد العزيز فيلالي، نفس المرجع السابق ، ص: 107 ــ108.

(3) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:41.

شنجيط أو ما يسمى بموريتانيا ، وفي هذه الصحراء كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية، وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادًا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط وكذلك الدولة الزيرية التي قامت في غرناطة بعد سقوط الخلافة الأموية أيام ملوك الطوائف غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتلثم أو تتقنع ولهذا سميت بصنهاجة اللثام (1) .

الصلة بين الأمويين في الأندلس ، والأمراء المغاربة في الشمال الإفريقي في هذه الفترة أي ما بين القرن الرابع الهجري والخامس الهجري قد انقطعت ولم يعد لها وجود (2) . اعتبار ان المغرب كان مصدراً لا ينفذ بالنسبة للأمراء الأمويين بالأندلس للتزود بالجند والمقاتلين لصد الهجمات المسيحية بالأندلس ، وإخماد الفتن الداخلية . لم تكن مراكش تبدو أغلب الأحيان في نظر اسبانيا أي الأندلس حتى ذلك التاريخ 476 هـ سنة سقوط طليطلة ، إلا في ثوب البلد المتأخر تتلوها في مسار الحضارة من بعيد لا تصلح إلا لتغذية جيوشها بالمتطوعين ، فإذا بها الآن تقوم في نظرهم بدور المنقذ . وكان الصحراويون الذين قدموا من مناطق قاحلة في الموريتانيا قد أقاموا فيها قبل ذلك بوقت قصير دولة هي دولة المرابطين وكان أميرهم يوسف بن تاشفين (*) . قد انتهى إلى فتح المغرب وتنظيمه فإلى هذا الأمير اضطرت الأندلس أن تتوجه طوعًا أو كرهًا من أجل دفع الخطر المسيحي الداهم

---

(1) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 478 ـ479.

(2)عبد العزيز فيلالي ، نفس المرجع السابق ، ص: 269.

(*) يوسف بن تاشفين(1019م-1106م):أكبر سلاطين المرابطين و أحد قادة جيوشهم ويعتبر من مؤسسي الدولة المرابطية سنة 472 هـ، أسس مدينة مراكش و افتتح تلمسان واختط مدينة تاقرارت .ـ انظر محمد بن عمرو الطمار، نفس المرجع السابق ، ص:42.ـ و انظر منجد اللغة و الأعلام، ص:755.

أكثر من أي وقت مضى [1] .

لما استتبّ لهم الأمر وفتحوا معظم بلاد المغرب وقويت شوكتهم وعرفوا ببلائهم الحسن في ميدان المعارك والجهاد كان لا بد لهم من اختيار عاصمة لهذه الدولة الفتية. سنة462هـ توفي أبو بكر بن عمر (الزعيم الروحي والعسكري للمرابطين) اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين [2]. وكان هذا الأمير قد انتهى من فتح المغرب وتنظيمه وما بقي له هو اختيار عاصمة للدولة الناشئة لاتخاذها مقرًا للإدارة والحكم .

قصد موضع مدينة مراكش وهو قاع صفصف لا عمارة فيه وهو موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيروان في افريقيا ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد اهل المغرب قوة وأمنعهم معقلاً فاختط هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل الجبال إن هموا بفتنته ، واتخذها مقراً فلم يتحرك أحد بفتنة وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها وكثرت عساكره [3] . مع هذا الاستقرار للمرابطين كانت أيضا بداية سيطرة جديدة للثقافة الأندلسية على مراكش على نحو أقوى من أي زمن مضى ، وقد سدد يوسف بن تاشفين الذي قبل العبور إلى اسبانيا لنجدة الأمراء المسلمين ، ضربة دامية للجيوش المسيحية في هزيمة الزلاقة [4] . استغاث أمراء الطوائف في الأندلس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإعانتهم لصد المسيحيين وفي هذا الشأن يقول ابن الأثير:« ... فسار إلى

---

(1) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، ص: 24 ـ25.

(2) ابن الأثير ، نفس المصدر السابق ،ج8 ، ص:76 .

(3) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج نفسه ص: نفسها .

(4) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ،ص :25.

أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراكش في طلب ما بقي من عساكره فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضًا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار فاجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية... فوقع القتال بينهم وصبر المسلمون فأشرفوا على الهزيمة ... وصل أمير المسلمين إلى خيام الفرنج فنهبها وقتل من فيها فلما رأوا ذلك لم يتمالكوا أن انهزمو وأخذهم السيف وتبعهم المعتمد خلفهم ولقيهم أمير المسلمين من بين يديهم ووضع فيهم السيف فلم يفلت منهم أحد»[1] .

من خلال هذه الإعانة والمساعدة التي أمدها أمير المرابطين للأندلسيين أخذت العلاقات منعطفًا آخر تتمثل في التئام صفوف المسلمين وصفاء الجو من الحقد والضغينة وسادت المودة بين الضفتين وتبادلوا الهدايا والزيارات الدبلوماسية . لم تدم هذه العلاقة الودية بحيث سرعان ما تعرف إمارات الطوائف بالأندلس فتنًا وحروبًا أهلية مما جعل أمير المرابطين يتدخل مرة أخرى لكن بخلاف سابقاتها . رجع هذه المرة لعزل كافة الأمراء الأندلسيين الصغار عن عروشهم وضم جميع ممتلكاتهم إليه . وأصبحت قرطبة القديمة مقاطعة جديدة في دولة المرابطين منذ ذلك الحين حتى نهاية القرن الحادي عشر تنحط الأندلس سياسيا فهي لا تكون غير جزء من دولة إسلامية كبيرة لم تعد قرطبة أو اشبيلية عاصمة لها وإنما مراكش[2] . فإن أمراء وملوك الطوائف بالأندلس كانوا على علم بما سيقدم عليه المرابطون إما آجلاً أو عاجلاً وذلك لأن الأحداث من الفتن والحروب في الأندلس

---

(1) ابن الأثير ، نفس المصدر السابق ، ج8 ص:141— 142.

(2) لفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص:25 —26.

ووجود الأعداء المسيحيين متربصين بهذه الإمارات ، كلها عوامل جعلت التدخل المرابطي في الأقاليم الأندلسية ضروري وشرعي وإلا ستكون الظروف غير التي كانت عليه .

ولعل مقولة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وأقوى ملوك الطوائف في ذلك الوقت حينما عزم على الاستنجاد بالمرابطين قال جملته المشهورة التي عبرت عن شعور المسلمين في ذلك العصر " رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير " هذا التصريح يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تمام العلم بأن ملكه ضائع سواءا على يد المرابطين في الجنوب أو الاسبان المسيحيين في الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الإسلامية بطبيعة الحال (1) .

ج ــ في العهد الموحدي

كانت تستند الحركة التي كان يتزعمها كل من عبد المومن بن علي (*) والمهدي بن تومرت(*) في الأصل على إصلاح ديني وخلقي بينما هي معدة لدعم

---

(1) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع السابق ، ص: 516 ــ517.

(*) عبد المومن بن علي : هو عبد المومن بن علي الكومي ولد بتاجرة بنواحي ندرومة وذلك سنة 490هـ نشأ وتعلم القرآن بها ، نزح إلى تلمسان وانكب على الدروس ، ثم اصطحبه ابن تومرت إلى المغرب لاحياء العلم وإخماد البدع ، وبعد وفاة المهدي بن تومرت تولى الزعامة من بعده، كما اعتبر اول حاكم استطاع أن يوحد المغرب العربي وكان ذلك سنة 546هـ ــ انظر محمد بن عمر الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:52ــ53ــ54

(*) المهدي بن تومرت : هو محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي، أصله من هرغة من بطون مصامدة وهو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال بن حمزة بن عيسى ، شب قارءًا محبًا للعلم ملازما للمساجد وارتحل في طلب العلم إلى المشرق في المائة الخامسة للهجرة توفي سنة 522 هـ انظر عبد الرحمن بن خلدون ، العبر في ديوان المبتدأ والخبر، المجلد السابع ، القسم 4 ص:464ــ465

مآرب سياسية فيما بعد [1] . لما قويت شوكتهما والتف حولهما الأتباع المؤيدون لدعوتهما وتعلق بهما الناس أمر بعضهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وأخذ يذكر المهدي حتى قرّ في نفوسهم فضيلته ادعى ذلك لنفسه فلما تحقق أنه استقر عندهم أنه المهدي المنتظر بسط يده فبايعوه على ذلك ، وبعد هذا كله أخذ يحارب المرابطين .

فحركة ابن تومرت قامت إذا على أساس مزدوج ديني وسياسي، توفي يوم الأثنين الرابع عشر لشهر رمضان المعظم من سنة 524 هـ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لقومه ماهم فاعلوه . فكتم أصحابه وفاته ولم يعلمو بذلك أحدًا إلى أن أقاموا بعده بن عبد المومن بن علي فقام هذا بالأمر من بعده وبايعه المصامدة وماهي إلا عشية أو ضحاها حتى استفحل أمر الموحدين على حساب المرابطين [2]

لم تكن اسبانيا المسلمة لتشهد هذه الحوادث دون مبالات ذلك أن هذه الحوادث إذا أعادت إليها شبه استقلال عابر ستؤدي إلى سقوط المرابطين وإقامة مملكة جديدة هي مملكة المؤمنين [3] . أما فيما يخص العلاقة التي كانت تربط بين الأندلس والموحدين كانت علاقة مبنية على أساس الدفاع عن الدين وحرمة المسلمين بديار الأندلس من هجمة المسيحيين الإسبان . وفي سنة إحدى وأربعين وخمس مائة للهجرة سيّر عبد المؤمن بن علي جيشًا إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام فسبب ذلك أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء إليه

---

(1) ليفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 27.

(2) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:54.

(3) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ص: نفسها .

جماعة من أعيان الأندلس... ومعلم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن بن علي ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منهم النصرة على الفرنج فجهز جيشًا كبيرًا وسير معهم وعمّر أسطولاً وسيره في البحر فسار الأسطول إلى الأندلس وقصد مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين فحاصروها برًا وبحرًا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن ما بها (1) .

وقد سجل الموحدون في سجلات وقائع اسبانيا الإسلامية التي أخضعوها دون عناء لعقيدتهم ولشكل حكمهم الخاص انتصارات عديدة كأسلافهم المرابطين وفي ذلك الوقت كانت إعادة الفتح المسيحي(حركة الاسترداد) تتقدم بصورة جلية(2). لما زحف الفونسو السابع على رأس جيشه الضخم إلى قرطبة وأقام على حصارها ثلاثة أشهر ولما قرب المدد الموحدي إلى قرطبة رفع الفونسو الحصار عنها والرحيل إلى بلاده (3) .

ظلت العلاقة تجمع بين الموحدين والأندلسيين في الدفاع عن الحواضر الإسلامية في الأندلس ومثال ذلك هو اتحاد الجيوش الموحدية والجيوش الأندلسية لرد هجمات الإسبان المسيحيين . وكان مقدم الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة وقد بث بين النصارى أسباب الجزع والفزع فبادر ملوكهم إلى إرسال رسلهم في

---

(1) ابن الأثير، نفس المصدر السابق ،ج9 ، ص:14.

(2) لفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 27.

(3) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ، ج1 ، ص:149.

التماس المسالمة والتهادن ويعرضون السلم ويطلبون عقد الهدنة، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى [1] .

وفي سنة 610 هـ تدخل الدولة الموحدية في مرحلة جديدة من مراحل حياتها مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلي مستمر على انتزاع العرش ، وتنهار قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعًا سواءً بالمغرب أو الأندلس وتتخذ هذه المرحلة في الأندلس بالأخص طابعًا مشؤوما فتغدو من جديد مصرحًا مضطرما للحرب الأهلية فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش وثانيا فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم . ومن خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز إسبانيا النصرانية لانتهاز الفرصة السانحة وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح الاسترداد تهتز له القواعد الأندلسية الكبرى ومصير الأمة الأندلسية كلها [2] . لم يدم تألق الموحدين طويلاً بعد حكم مجيد مثل حكم عبد المؤمن وحكم يعقوب المنصور [*] ذلك أن إعادة الفتح المسيحي لم يعد يجد بعد زوال هذا العامل الأخير عقبات كثيرة في إسبانيا تقف في وجهه [3] .

---

(1) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ج2 ، ص:176.

(2) محمد عبد الله عنان، المرجع نفسه ، ج2 ، ص:328 ـــ329.

(*)يعقوب المنصور : هو يعقوب بن يوسف المنصور (1160م–1199م) هو أحد خلفاء الموحدين (1184م–1199م)الذي عرفت خلال حكمه الدولة الموحدية الازدهار والعمار فقد كان يشجع العلم والعلماء، و مد نفود الدولة على شمال إفريقية و اسبانيا ـــ انظر محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:76. ـــ أنظر منجد اللغة و الاعلام، ص ، 750

(3) ليفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 28.

3 _ الهجرات الأندلسية:

العدوتان المغربية والأندلسية كانتا تحت ظل الخلافة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي حتى انتهاء الدولة الأموية بالأندلس، بحيث كان التنقل مسموحا بين البلدين هذا ما جعل المؤرخين في تلك الفترة لا يولون أهمية قصوى لتلك الهجرات بما أن القطرين كانا في واقع الأمر تحت حكم دولة واحدة وهذا منذ العهد الأموي بالأندلس إلى أواخر العهد الموحدي، كان التنقل مسموحٌ به بين الضفتين لكل من أراد ذلك ، ولا شك أن كثير من أهل الشمال قد نزحوا إلى بلدان المغرب واستقروا بها غير أن المؤرخين كانوا ينظرون إلى تلك الهجرات على أنها تنقلات عادية يقوم بها مواطنون بين أجزاء وطن واحد لذلك لم يهتمو بتلك الهجرات . وهناك سبب آخر جعل المؤرخين لا يعطون هذا النزوح الذي كان يقع من الأندلس إلى المغرب في تلك الفترة صفة الهجرات هو أن أغلب هؤلاء الأندلسيين المهاجرين إلى شمال إفريقيا هم في الواقع أفارقة اضطرتهم ظروف معاشية أو سياسية في وقت ما للنزوح إلى الجزيرة وعندما تغيرت تلك الظروف رجعوا هم أنفسهم وأبناءهم وأحفادهم إلى منبتهم الأصلي حيث لا زال لهم أهل وعشائر بمواطن متفرقة في بلدان المغرب(1) .

إن ضياع وسقوط جزر البليار وسقوط بعض حواضر الأندلس مثل اشبيلية ومرسيا وفاين وقرطبة و فالينسيا وهذا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي جعلت جملة من المسلمين يقصدون الأراضي الإسلامية على الضفة الأخرى ثم انخفض عددهم ليرتفع في نهاية القرن الخامس عشر عند سقوط غرناطة

---

(1) محمد الجون، أثر الأندلسيون في الأدب الموحدي ، ص:235.

والقليل منهم قصد بلاد المشرق ولكن الأغلبية استقرت ببلاد المغرب وخاصة في المدن الساحلية في شمال إفريقيا[1] .

اتخذت هذه الهجرات عدة مظاهر بفعل عدة أسباب سنحاول ابراز بعض مظاهر هذه الهجرات ثم نربطها بالدوافع والأسباب التي كانت من ورائها مثلا عند استمرار حصار أبدة من يناير حتى جويلية سنة 1233م (أواخر سنة 630هـ) فلما عدمت الأقوات ولم ترد أية نجدة من أية جهة اضطرت أبدة إلى التسليم بالأمان على أن يؤمن سكانها أنفسهم وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم وأمتعتهم ما يستطيعون حمله معهم وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضي الإسلامية [2] . هذا شكل من أشكال الهجرة الداخلية بالأندلس أو النزوح بفعل الحصار وبطش الحروب نزح السكان في الأندلس من أقاليم ساخنة متوترة إلى أخرى آمنة.

لما سقطت فلنسيا وما يليها من القواعد القريبة في أيدي النصارى نزح االكثير من أهلها إلى قواعد الأندلس الباقية في الشرق والجنوب والوسط وعبر في نفس الوقت كثير منهم البحر إلى العدوة واستقروا في مختلف أنحائها . أصدر الخليفة الموحدي الرشيد ظهيرًا في الحادي عشر من شهر شعبان 637هـ إلى المتنقلين من أهل بلينسية وجزيرة شيقر وشاطبة وغيرها يأذن لهم فيه بالنزول في رباط الفتح. وهو وثيقة ذات أهمية خاصة تلقي ضوءا كبيرًا على مصير من شردتهم محنة الانهيار من أهل الأندلس ، وكانوا يلقون من أنحاء العدوى من

---

(1) Atallah , dhina – le royaume abdelwadid ...- p : 49

(2) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع السابق ، ج2 ، ص:402.

ضروب المساواة والعطف والترحيب[1].

بالإضافة إلى مظهر أو شكل آخر من أشكال الهجرة وهو التهجير القسري أو بمعنى النفي او التغريب وفي هذا الشأن نذكر حادثة على سبيل المثال لا الحسر، اعتزم ابن الأحمر أن يسير إلى ألميرية لافتتاحها وسحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقاتله فسار إليها في بعض قواته وحاصرها من ناحية البر بشدة ولبث على حصارها حينا فلما رأى ابن الرميمي انه لا أمل له في النجاة من مصيره غادر ألميرية من جهة البحر في مركب شحنه بأهله وأمواله وسار إلى تونس حيث لجأ إلى اميرها أبي زكريا الحفصي واستقر بها تحت كنفه ورعايته [2] .

فالواقع أن التاريخ لم يعر أي اهتمام للهجرات التي وقعت من قبل اشتداد حركة الاسترداد ، أو أنه لم يعط حركة النزوح التي كانت تقع بين الضفتين أنذاك طابع الهجرات بمعنى الكلمة وهذا لعدة أسباب نلخص أهمها أن الهجرات كانت تقع في الفترة التي سبقت الدولة الموحدية بقليل ، إذا ما قيست بتلك التي وقعت عقب محاكم التفتيش لذلك لم يشتغل المؤرخون لتدوينها إذ لم تكن تشكل ظاهرة بارزة [3] .

لاتفوتنا الإشارة هنا إلى سرد حادثة الهجرة الجماعية إثر حركة الاسترداد من قبل المسيحيين الإسبان والمتمثلة في سقوط مدينة اشبيلية على يد ملك قشتالة وإخلائها من قبل المسلمين ، وقضى المسلمون زهاء شهر في اخلاء المدينة وتصفية

---

(1) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع السابق ، ج2 ،ص: 455 ـــ456.

(2) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ،ج2 ، ص: 430.

(3) محمد الجون ، نفس المرجع السابق ، ص: 214.

شؤونهم وبيع متاعهم وكان ملك قشتالة يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر وخصص لذلك أسطولاً يتكون من خمس سفن كبيرة وثمان صغيرة . خرجت من اشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها، وتشتمل سائر الطبقات وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل اشبيلية من المسلمين بأربع مائة ألف منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبته وثلاث مائة ألف ساروا برًا بطريق شريش وتفرقوا بمختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب وقصد من عبر البحر منهم مختلف ثغور المغرب ولا سيما سبتة وتونس وكان هذا في أوائل شهر رمضان 647هـ (1) .

إن اشتداد ضغط حركة الاسترداد على المسلمين والتعصب الإسباني لجنسهم وتعصبهم للدين المسيحي الذي رافقه الضعف الذي دبّ في الإمارات الإسلامية في الأندلس إثر استهزاء وترف الأمراء المسلمين بمقاليد الحكم وتناحر ملوك الطوائف فيما بينهم والفتن الداخلية والهجمات الشرسة من للمسيحيين التي مكنتهم من طرد المسلمين والفتك بهم والبطش بأسرهم وأعراضهم وأموالهم تولدت عن هذه الظروف القاسية والمعاناة هجرات متتالية.

أخذ الأندلسيون يتسللون فرادى وجماعات إلى المغرب العربي وكان حظ الجزائر منهم كبيرًا فقد وفد عدد وافر على تلمسان (2) . هؤلاء الأندلسيون استقروا في أحواز تلمسان ممتهنين لحرفهم كحرفة التطريز وحرفة التجليد ، فمنهم البناؤون والحدادون والنجارون الذين جلبوا معهم هذه المهارات الأندلسية والتي لم تكن كلها

---

(1) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع السابق ،ج2 ، ص: 486.

(2) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 214.

عربية وإنما الكثير منها وندالي أو إيبيري والتي امتزجت بتقنيات ومهارات عربية اقتصاديا وثقافيا تدين تلمسان كثيرًا لهؤلاء الأندلسيين الذين جلبوا زبدة حضارتهم إلى هذه البلاد . لقد وفد إلى المغرب الأوسط عدد كثير من الأندلسيين ما بين القرن الحادي عشر والسادس عشر الميلادي ليس بإمكاننا تحديد العدد بدقة إن كان كثيرًا أم لا لكن قوة التأثير الثقافي والفني كانت أكثر من تقديراتنا [1] .

ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعا في أيدي النصارى عبر كثير من علماء الأندلس إلى ثغور إفريقيا وقواعدها ولا سيما تونس بجاية وتلمسان وقامت في شمال إفريقيا في أواسط القرن السابع الهجري حركة فكرية وأدبية زاهرة[2] . فقد استولى الإسبان على غرناطة والميرية حيث انحازت الثقافة بعد سقوط قرطبة واشبيلية فما كان على المسلمين إلا أن يهجروا الأندلس العزيزة فنزح منهم عدد كبير إلى الجزائر وانتشروا في حواظرها وسكن قسط كبير منهم تلمسان التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس من قبل[3].

ظلت العدوة المغربية بالنسبة للأندلس السند القائم كعادتها سواء في الشدة أو الرخاء كانت المصدر الهام للتزود بالمقاتلين بدءًا بالفتوحات وصد الهجمات واخماد الفتن وأصبحت المنقذ الوحيد الملبي لأصوات الإغاثة المنبعثة من أعماق الأندلس من قبل المسلمين المضطهدين من طرف المسيحيين ، وانتشار دواوين التفتيش ومحاكم التجسس في كامل أقاليم الأندلس، ورغم المحن التي كان يعاني

---

(1)Atallah, dhina- opcit- p :49

(2) محمد عبد الله عنان،نفس المرجع السابق ، ج2،ص: 647

(3) محمد بن عمرو الطمار، نفس المرجع السابق ، ص:221.

منها المغرب جراء هجمات الأعداء الصليبيين إلا أنه لم يدخر جهدًا لتلبية نداء إخوانه المسلمين هناك ، فشارك جملة من القادة البحريين العظماء لانقاذ ما أمكن انقاذه . وتصاعدت أصوات الإغاثة واندفع خير الدين بربروس لإنقاذ نصف مليون مسلم تقريبًا على دفعات متتالية[1] . كما أن وجود عائلات أندلسية قد استقرت فيما سبق بتونس وكونت طبقة ارستوقراطية في الدولة الحفصية من سياسيين وقادة جيش وعلماء وأدباء كان بمثابة دافع كبير للأندلسيين المهجرين من إسبانيا في التوجه إلى تونس لوجود هذه العائلات الأندلسية هناك بتونس ، وكبرت موجة هذه الهجرات بعد سنة 1906م واستقروا في تونس العثمانية [2] .

الذي يهمنا من استعراض هذه الموجات البشرية القادمة من الأندلس تجاه المغرب سواء كانت الهجرات جماعية أو فردية هو القدر الذي ساهمت به هذه الجاليات الأندلسية من جهود في البناء الحضاري ببلدان المغرب وما ترتب عن ذلك من انعكاسات على جميع الميادين العلمية ،الثقافية ،المعمارية، الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية . وما نؤكد عليه هو انتقال بذور هذه الحضارة الزاخرة بجميع التخصصات من الأندلس إلى المغرب على يد هؤلاء المهاجرين والذين يمثل معظمهم خيرة المجتمع الأندلسي .

لازالت هناك عائلات بتلمسان نسبت أسماؤها إلى المكان الذي كانت تقيم به في

---

(1) بسام العسلي ــ الأتراك العثمانيون ومسلموا الأندلس ــ مجلة منار الإسلام عدد أول، أوت 1988.

(2) محمد بلحميسي ــ دراسة حول الموريسكيون الأندلسيون في تونس ــ مجلة تاريخ المغرب العدد11، جوان 1974.

شبه الجزيرة الأندلسية أي الذي كانت تقطن به قبل مغادرتها له مثل (*) : عقباني قرموني ، غرناطي ، شقرون ، مالق ، قيسي وغيرهم .

(*) ــ تحديد الأماكن التي نسبت إليها أسماء هذه العائلات :

عقباني ــ نسبة إلى قرية عقبان شمال الأندلس

قرموني ــ نسبة إلى قرية قرمونة غرب الأندلس.

غرناطي ــ نسبة إلى غرناطة .

شقرن ــ نسبة إلى جزيرة شيقر شرف الأندلس .

مالق ــ نسبة إلى مالقة بجنوب الأندلس '

قيسي ــ نسبة إلى قبيلة بالأندلس كانت قاطنة بالثغر .

انظر حاج محمد بن رمضان شاوش ــ باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان ــ ض:401.

الفصل الثاني

1 ـ مكانة الأندلس الفنية في الحضارة الإسلامية

2 ـ الفنون الزخرفية الأندلسيـــــــــــة

أ ـ الزخرفة في المبانــــــي

ب ـ الزخرفة الفخارية والخزفية

ج ـ الزخرفة الحجرية والرخامية

د ـ الزخرفة المعدنيـــــــــــة

هـ ـ الزخرفة الخشبيـــــــــة

و ـ الزخرفة العاجية والبلور الصخري

ز ـ الزخرفة النسيجية والطنافـــس

ي ـ زخرفة الكتـــــــــــاب

1 – مكانة الأندلس الفنية في الحضارة الإسلامية :

عندما تحدث العقاد عن الحضارة الإسلامية أشار إلى مقولة مشهورة للمستشرق أدوين هول :« أن حضارة الإسلام في الأندلس قد صنعت الخوارق في ترقية العقول والأذواق »[1] . احتلت الأندلس مكانة السمو والرفعة في ظل الحضارة الإسلامية لما حققته من أشواط هامة في مجال العلم والعمران والثقافة والفن . لقد أضحى الفن في الأندلس مقياسًا هامًا ضمن مقاييس الحضارة الإسلامية ومن جملة هذه الفنون " الزخرفة " ، عرف الفنان المسلم كيف يجمع بين الصناعة والفن الجميل ويستوي عنده من حيث الإتقان ما تخرجه أنامله سواء في تجميل قصر كبير أو كوخ حقير ، وآنية مصنوعة من الذهب أو من الطين، كل شيء ينبغي أن ينال حظه من الفن حتى إذا كان جزء المادة المزخرفة غير ظاهر للعيان ، بفضل هذا التفاني والإتقان في العمل الفني أو في بقية الأعمال الأخرى . في كافة المجالات استطاعت الأندلس أن تثبت مكانتها الفنية في تاريخ الفن العربي الإسلامي ، كما ذاع صيتها في المشرق والمغرب الإسلاميين وأوروبا بفضل مهارة فنانيها والذين كان الطلب على استقدامهم في جميع الأقطار العربية وغير العربية آنذاك .

لم تقتصر الحياة الفنية بالأندلس على روعة وجمال الزخرف فقط بل تعدته إلى كافة الفنون تقريبًا ، فكان موضوع تركيزنا الفنون الزخرفية لأنه شمل مجموعة كبيرة من الحرف والمهن والمهارات والصناعات التقليدية لتحف ثابتة ومنقولة . أما بقية الفنون كالموسيقى مثلا فقد عرفت رقيًا وتطورا لا مثيل له

---

(1) عباس محمود العقاد ، الإسلام والحضارة الإنسانية ، ص:26.

بالنسبة للعصور السابقة . كذلك فن الطبخ وفن البستنة وفنون التجميل وفن الأزياء وغيرها من الفنون التي فاقت كل التصورات ، هذا التطور في جميع الميادين جعل المجتمع في الأندلس آنذاك يعيش حياة البذخ والرفاهية لما وصل إليه من نمو ورخاء اقتصادي واجتماعي وثقافي وكان هذا بفضل ما حمله الفاتحين معهم وامتزاجه بما كان موجودًا فأعطى هذا النموذج من الثراء الإقتصادي والاجتماعي والفني خاصة والذي لا تزال بصماته محفوظة إلى اليوم سواءً ذاك الذي لا زال قائمًا في مكانه أو ما هو محفوظًا بالمتاحف المنتشرة عبر بقاع العالم .

2 ـ الفنون الزخرفية الأندلسية :

الفن هو كل جمال يصطنعه الإنسان ، كما أنه حس الإنسان بممارسته لذاته التي تريد تجاوز نفسها وواقعها . إن اقرب الإنجازات العلمية للتعبير عن الدافع الحضاري هي ولا شك الإنجازات الفنية مهما اختلفت وتباينت أشكالها . إن عربة الحضارة يقودها الفنان بحدسه وسبقه وليس الدارس باختباراته وتجاربه (1) .

من خلال هذه التعاريف البسيطة نستخلص أن أول وآخر مقياس لتطور ورقي أوجمود وركود حضارة ما هو الفن باختلاف مظاهره وأشكاله . لتكوين فكرة واضحة عن مدى تقدم الفنون الزخرفية الأندلسية في عهد الخلافة الإسلامية بالأندلس مؤيدين إلى حد كبير صدق أقوال المؤرخين الذين هزتهم عبارات الإعجاب والوصف ولفتت نظرهم إلى جمال هذا الفن وتنوعه وغنى مواضيعه ومدى انتشاره ، فهو يظم فنون امبراطورية واسعة امتدت من الصين وتركستان شرقا إلى اسبانيا وأقصى جبل الأطلس غربا، ضمت شعوبًا كثيرة كانت لها حضارات وكانت لها فنون تأثرت بروح الإسلام وبالذوق العربي تطورت هذه الحضارة وهذا الفنون بما لايخالف هذا الذوق وتلك الروح (2) .

أما نظرة الشرع الإسلامي فيما يخص الفن فنصوص الكتاب والسنة واضحة وصريحة في منع الناس من العودة إلى عبادة الأصنام والأوثان وتعظيمها، ولهذا نجد الفن العربي الإسلامي منحصرا في الهندسة المعمارية وما يتبعها من نحت ونقش وترصيع (3) .

---

(1) يوسف الحوراني ، الإنسان والحضارة مدخل ودراسة ، ص: 86 ـــ90ـــ94.

(3) أنور الرفاعي ، نفس المرجع السابق ، ص: 05.

(3) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 150.

المقصود من الفنون الزخرفية هي تلك الفنون التي تزين الآثار الثابتة من عمائر مختلفة أو تزين التحف المنقولة المصنوعة من الفخار والخزف أو النسيج والخشب والعاج ومن المعادن والزجاج والجلد والورق ، مع الجمع بين الدقة والإتقان في الصنع والروعة والجمال والتزيين ، وقد اعتمد الفنان على عنصرين اثنين في الزخرف أولهما الإشكال الهندسية من مظلعات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة، وثانيهما الأشكال النباتية التي تفننوا في تصويرها على طريقة التكرار من تعريقات وأوراق مختلفة وزهور متعددة الأشكال ، كما استخدم الخط العربي بأنواعه المختلفة في التزيين والتفنن في اختيار الآيات القرآنية والحكم والأشعار، سنتانول الآن مجالات الزخرف المتنوعة كل على حدة .

أ – الزخرفة في المباني :

إن زخرفة العمائر سواء المدنية أو الدينية أو العسكرية لأهم شاهد عيان نقف عليه في زماننا إذ من خلالها تمكنا من معرفة مهارة وتفوق الفنان الأندلسي الذي برع في زخرفة جدران قصور الملوك والأغنياء ، وتفنن في نقش وتخريم الآيات والحكم في بيوت الله بأشكال هندسية وعقود رائعة، مساجد زينت بقباب وصوامع تشد إليها الناظر بتناسق ألوانها واتقان تخطيطها، مباني حربية وحصون اتسمت بالدقة والمتانة في البناء التي طغت على الجانب الزخرفي . لقد عمل ملوك الأندلس على تشييد مساجد لا زالت قائمة إلى اليوم تمّ في زخارف جدرانها عن مهارة صناع جلبهم الأمراء من جميع الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية (1) .

من الأمثلة التي تتجلى فيها زخرفة الجدران بصورة رائعة زخارف المسجد

---

(1) W. et G. Marcais –Monuments arabes de tlemcen ,p :30

الجامع بمدينة قرطبة منها ما هو مدهون باللون والأحمر والأزرق ومنها ما هو منقوش في الجص كالمحراب والعقود والأعمدة المتكررة في امتداد لا يحده البصر توحي بالطبيعة الحية (لوحة رقم 1 مع الشكل رقم4) (1) . قوام هذه الزخارف جميعًا العناصر النباتية مع كيزان الصنوبر وفاكهة الرمان والأزهار المختلفة وشجرة الحياة التي لعبت دورًا كبيرا في الفن عامة والعمائر والتحف المنقولة خاصة . كما تكشف الفسيفساء عن الروح البيزنطية التي كانت شائعة في الفن الإسلامي في سنينه الأولى ، يؤيد ابن عذارى هذه الحقيقة في تاريخه من أن الخليفة الحكم(*) بعد أن وسع مسجد قرطبة طلب من امبراطور بيزنطة بإرسال كمية من فصوص الفسيفساء كما طلب إليه أيضًا إيفاد بعض الصناع مع تلك الفصوص للعمل على تزيين محراب المسجد الجامع ، يقول أنه حضر بالفعل مع فصوص الفسيفساء صانع بيزنطي ساهم في وضعها في مكانها وأغلب الظن فإن هذا الصانع قام بتعليم طائفة من صناع قرطبة تقنية صناعة الفسيفساء (2) . من أروع القباب التي شيدها الحكم الثاني قبة المحراب الرئيسية بجامع قرطبة المكسوة تمامًا بالفسيفساء البيزنطية وشكلها على هيئة نجمة مثمنة الزوايا تحتوي في أعلاها على صدفة (3) (لوحة رقم 2 مع الشكل رقم 5) .

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ، ج1 ص: 364.

(*) الخليفة الحكم : هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ولي الخلافة في صفر سنة ثمان ومائة للهجرة، وكانت ولايته ستا وعشرين سنة وأحد عشرة شهرا ، مات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ستٍ ومائتين للهجرة ، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة . انظر ابن عبد ربه الأندلسي نفس المصدر السابق ج4 ،ص:390.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 82.

(2) عبد العزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق ، ص: 70.

تعتمد زخرفة هذه الفسيفساء على العناصر النباتية والكتابات العربية متضمنة نصوصًا قرآنية ونصوصا تاريخية ، وكلمة فسيفساء تعني كلمة مفصص ، وقد استعملت هذه الكلمة في المغرب دون المشرق ، تقوم على تكوين رسوم مختلفة بواسطة قطع صغير مكعبة الشكل [1] .

أما الزخارف الجدارية التي كشفت عنها حفائر الزهراء فقد أظهرت لنا وضوح وجمال الزخرفة الإسلامية في عصر الخلافة الأموية بالأندلس ، كما أبرزت لنا عبقرية الفنان المسلم في عملية الإبداع والإتقان هذه الحفائر أمدتنا بثروة عظيمة من أجزاء من جدران قصور هذه المدينة الإسلامية العظيمة (لوحة رقم 3) ، وجميعها تزدان إما بزخارف مدهونة باللونين الأحمر والأصفر أو زخارف نباتية محفورة والتي تتجلى في رسمها الخصائص الأندلسية. إن حيطان قصر الناصر[*] كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وإن قراميده من الذهب والفضة ، وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، في كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي ، وحوض أخضر منقوش بتماثيل الإنسان جعل عليه الخليفة اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي [2] . وهناك زخارف مدهونة باللونين البني والأخضر مزينة

---

(1)محمد عبد العزيز مرزوق المرجع السابق ، ص:83.

(*) الناصر : هو الخليفة عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين والناصر لدين الله ولي الملك صبيحة هلال ربيع الأول ثلاث مائة للهجرة ولقب بهذا الإسم الناصر لدين الله سنة 317هـ . وقد دام حكمه نصف قرن — انظر ابن عبد ربه الأندلسي ، نفس المصدر السابق ، ج4 ، ص: 498.

(2) أنور الرفاعي ، نفس المرجع السابق ، ص:47— 48.

بعناصر حيوانية [1] .

أما زخارف قصر الجعفرية فتقوم على الحفر في الجص الذي كان يزين الجدران ونلمس في هذه الزخارف الأناقة مع التزاحم والتعقيد فالزخرفة الهندسية تسير وراءها على استحياء متداخلة ومتقاطعة، فصوص متعددة ، وأوراق الشجر قريبة من الطبيعة مثل التي شاهدناها في محنيات المحراب في مسجد قرطبة[2] (لوحة رقم 4).

قصر الحمراء أروع نموذج ومثال للعمارة المدنية الإسلامية تتراءى فيه عبقرية المهندس العربي بتصاميمه ومخططاته وزخارف جدرانه مسجلاً بها جمال الفن الإسلامي وعظمة العرب في صناعة البناء والزخرفة . زخارف هذا القصر استمدت عناصرها الأولية من الفنون التي سبقته إلى الوجود وامتزجت في ثوب جديد ومظهر مبتكر لا يخفي أصله دون أن ننكر الشخصية القوية لهذا المبتكر [3] . وعن الزخارف الجدارية التي يحويها هذا القصر منها باب الشريعة أول أبواب القصر به نصًا عربيًا بالخط المغربي تتخلله زخارف نباتية (لوحة رقم 5) كما نجد زخرفا يمثل كفا مفتوحا بجواره صورة مفتاح الكف حماية من الحسد والمفتاح شعار أهل الأندلس يرسمونه على أعلامهم يرمز إلى مفاتيح قصر الحمراء ، أما باب الخمر فزخرفته ساذجة تمثل عناصر نباتية بسيطة ذلك لأنه من عمل الموحدين واجهته الداخلية غنية بالزخرفة الدقيقة والقراميد الخزفية المختلفة الألوان مزينة بزخارف محزوزة من النوع المعروف في الأندلس

---

(1) G. Marcais- l'art musulman – p : 96

(2) محمد عبد العزيز مرزوق، نفس المرجع السابق ، ص: 85.

(3)محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ، ص: 93.

بالكوزداسيكا(*) ، قاعة البركة وقاعة العرش دائما بالحمراء مزدانة جدرانها بزخارف جصية رائعة على الرغم من أن العناصر الزخرفية المستعملة محدودة ، إلا أن الفنان المسلم نجح في جعلها تبدو كما لو كانت مختلفة غير مكررة [1] (لوحة رقم 6) .

بساحة الأسود ستائر من الجص مخرمة بزخارف جميلة كأنها قطع من المدبج مخرمة ومطرزة بروعة فائقة بها غلالات من الجص شبيهة بالغلالات الحجرية الموجودة في صوامع المغرب واشبيلية ، بالإضافة إلى الزخرفة الجصية التي كانت تزين جدران هذا القصر هناك المقرنص هذا العنصر الزخرفي من شدة روعته وجماله سميت قاعة في القصر باسمه (قاعة المقرنص) احتوائها على نماذج من هذا الزخرف الرائع(شكل رقم1)، دون أن ننسى القرامد الخزفية المختلفة الألوان المزينة بجدران حمام القصر وبعض قاعاته مضفية عليها جمالا ورونقًا (لوحة رقم 7) هذه القراميد أو الزليج أصبحت وسيلة من وسائل تزيين الجدران في الأندلس والمغرب. وهذا ما كشفت عنه حفائر الزهراء مثل قطع من الزليج المذهب اشتهرت بانتاجها مدن نذكر منها مالقة ، بلينسية واشبيلية . كان يحتوي هذا الزليج على رسومات نباتية وحيوانية وطيور جميلة وكتابات عربية بالخط المغربي[2]

مدينة اشبيلية من أهم المدن التي اشتهرت بصناعة الزليج،و يعتبر الزليج الإشبيلي من أحسن الأنواع[3] .

(*) الكوزداسيكا : طريقة الفواصل الجافة وتعني أن الإيناء بعد تشكيله لم يكن يزجج كل مرة واحدة بلون واحد بل كان يقسم إلى أقسام يزجج كل واحد منها بواسطة الفرشاة بلون خاص ويفصل كل لون عن الآخر حزّ عميق ثم يسوى في الفرن بعد هذا التزجيج . ـــ ينظر محمد عبد العزيز مرزوق، نفس المرجع السابق ، ص:94.

(1) محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ، ص: 93.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 94.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 95.

أما شأن البناء الحربي فقد طغى عليه عنصر الصلابة والمتانة في البناء دون مراعاة الجانب الزخرفي . وما من مدينة هامة إلا وقد احيطت بصور كبير أو حصنت بقلعة متينة تفاديا لأي غزو خارجي . كان يحيط بأرباض قرطبة صور منيع أقيم من التراب والطابية ، وكانت تدعمه الأبراج في جوانب مدينة قرطبة الأربع ، 207 برجًا مربعة ومستطيلة الشكل [1] . كما وضعت مداخل معلومة لمراقبة أي تسرب للأعداء ، ونجد هذا النمط في جميع المدن المهمة للأندلس.

ب ـــ الزخرفة الفخارية والخزفية :

تتصل الأواني الفخارية والخزفية بحياة الناس اتصالا وثيقًا منذ عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا ، ومن هنا كانت عناية رجال الآثار بدراستها عظيمة ، لأنها تعكس تدرج البشرية في سلم الرقي بصورة واضحة ، فمن فخار غليظ الشكل خال من الزخارف إلى فخار متناسق الأجزاء موزون الأبعاد، مزخرف بالألوان والنقوش، إلى زخرف تتجلى فيه مهارة الصانع وذوق الفنان بصورة تكشف عن مدى تقدم الإنسان وتطوره [2] . معظم ما عثر عليه يخص تحفًا فخارية عديدة كالقلل والأطباق والقدور وجرار الزيت والصحاف والأقداح ، وينقسم الخزف الذي تم الكشف عنه في الزهراء وقرطبة إلى ثلاثة أنواع : نوع شعبي ونوع مزجج ونوع مذهب [3] .

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج1 ص:217.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 99.

(3) السيد عبد العزيز سالم ـــ قرطبة ... ج2 ، ص:150.

الشيء المتعارف عليه في أوساط علماء الآثار أن خزف بلينسية ، اشبيلية ملقة ، غرناطة وألميرية كان الأكثر شيوعًا وإقبالا عليه من قبل التجار والرحالة من مختلف بقاع العالم حيث وجدت أجزاء منه في كل من المشرق وأوروبا ، فكانت الصدارة في الأندلس في انتاج الخزف في غربي العالم الإسلامي، فقد كانت سائر بلاد المغرب تستورد منها أنواع الخزف الجميل [1] . عرفت هذه الأماكن في الأندلس ازدهارًا في هذه الصناعات الفخارية والخزفية نظرا لجودتها وتفنن صناعها في زخرفتها وتزيينها وهذا ما تؤكده الحفريات التي وصلت إلينا مثلا في إقليم غرناطة وهي أمثلة رائعة من الخزف الأندلسي بعضها من قصر الحمراء وهي من أبرز المعالم الأثرية في تلك المنطقة، ومنها قدران ومزهريتان ذات طابع خاص من حيث الشكل والزخرفة والتلوين . أما الشكل فهو يقرب من شكل الأنفور القديمة حيث يكون الجسم بالقرب من القاع ، أرفع مما كان عليه في الوسط والرقبة فوهتها أوسع في الاستدارة من قاعدتها المتصلة بالبدن والبدن قطره أوسع في الوسط من قطره في أية بقعة أخرى في المزهرية ويتصل به من أعلى مقبض أشبه ما يكون بالجناح في كل جانب من جانبيه الأيسر والأيمن ، أما قاعدتها فأشبه ما يكون بالكاسة الكبيرة [2] .

تقوم الزخرفة في هذه المزهريات على العناصر المختلفة لكن العناصر النباتية أكثرها استعمالا وأروعها مظهرا ، الزخارف الحيوانية فيها الوحوش والطيور ، الزخارف الكتابية قوامها نصوصا عربية منقزشة بالخط الكوفي والخط المغربي أو بهما معا . أما الألوان المستعملة من قبل صناع المزهريات طابعها

---

(1) زكي محمد حسن ــ فنون الإسلام ــ ص: 332.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 112.

الانسجام في الألوان ، الأسود الذي يسود الأرضية ، والذهبي الذي رسمت به الزخارف والكتابة ، والأزرق الذي يحف بأشرطة الكتابة والزخرفة [1].

وقد اصطلح مؤرخو الفن الإسلامي على تسمية مزهريات الحمراء أو قدور الحمراء على هذا النوع من الأواني نظرًا لأنهم عثروا على بعضها بقصر الحمراء ــ وكذلك لتشابه بعض زخارفها بزخارف القصر[2] . وقد ذكر المؤرخون قيام صناعة الغضار المذهب في ملقة وهو ما اكدته الأبحاث الأثرية فيما بعد . كما كشفت في الميرية حفائر أثرية لأنواع مختلفة من الخزف فيها مزهريات حمراء لعلها كانت مستوردة من ملقة أو مصنوعة محليًا . لقد كان للمغرب والأندلس خاصة نصيبًا كبيرًا في تقدم صناعة الخزف الإسلامي ولا سيما الغضار المذهب الذي كان المثل الأعلى لمنتجات الخزفية ، وإذا كان خزافو الأندلس هو معلمي خزافي أوروبا فقد كانوا بدورهم تلامذة خزافي بلاد المغرب الإسلامي في هذه الصناعة [3] .

ج ــ الزخرفة الحجرية والرخامية :

بحكم البيئة التي نشأ فيها هذا الفن والتي كان لها تأثير بارز في توجيه الفنان نحو نمط معين دون غيره جعله يبتعد عن مجال نحت التماثيل والأوثان واتجه إلى نحت الأحواض والفوارات وشواهد القبور والتي تعد انواعًا لزخارف مختلفة ونصوص تاريخية تشهد لعصر وتاريخ صنعها ، وحتى يتسنى لنا معرفتها ودراستها سنأخذ بعض الأمثلة من شأنها أن توضح لنا الجانب الزخرفي لهذه التحف

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 112.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 116.

أول حوض عثر عليه في مدينة اشبيلية مستطيل الشكل مرتفع الجوانب ويجمع بين زخارف حيوانية وعناصر نباتية على جوانبه الأربع طراز من الكتابة الكوفية الجميلة يزدان في جانبيه الكبيرين بعقود حدية الشكل مكونة من ثلاثة فصوص تحتها زخارف نباتية جميلة أما الجانبان الصغيران فنقشت فيهما حيوانات متواجهة ونسور قد قبضت بمخالبها على حيوانات من ذوات أربع ، هذه الوثيقة الفنية تجمع بين التاريخ لهذه التحفة الفنية وتبرز نوعا معين من الزخرفة [1] .
كشفت الأبحاث الأثرية بأطلال قصر القصبة عن آثار لأحواض مختلفة في الشكل والزخرفة منها حوض ناقص القاع من الرخام الأبيض عليه نقوش آدمية وحيوانية ونباتية [2] . حوض آخر عثر عليه في قصر الحمراء وهو يجمع أيضًا بين الزخرفة والنص التاريخي والزخارف التي تحليه لا تخرج في طبيعتها عن الزخارف الموجودة في الحوض السابق[3]. كما اشتهرت الميرية في صناعة أحواض الرخامية حتى عصر بني نصر ، ولا نستبعد تزويدها قصر الحمراء بالفوارات الرخامية والأحواض التي تزين حدائقها[4]. كما استعمل الرخام القرطبي الناصع البياض الشديد الصفاء في كسوة جدران الزهراء وكسوة جوفة المحراب وجانبيه وأرضية المقصورة [5] . كما كان يجلب كذلك من ألميرية هذا الرخام الأبيض

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 144.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة ألميرية الإسلامية – ص:165.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 145.

(4) السيد عبد العزيز سالم ، الميرية ... ص: 165.

(5) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ص: 151.

لكسوة جدران قصر الحمراء والزهراء وصناعة الأعمدة ونقش تيجانها وقواعدها بهذا القصر [1] . ينسب إلى الميرية معظم التوابيت التي اكتشفت في مقابر الأندلس وتمتاز توابيت ألميرية بأنها مصنوعة كلها من الرخام الأبيض كما تمتاز شواهد القبور بأناقة الخط الكوفي المنقوش عليها[2] .

أما الأحجار التي استخدمت في كسوة جدران قاعات الزهراء من النوع الرملي الصلب وحفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفراً غائرًا . وتزودنا أطلال قصور الزهراء بألوف عديدة من القطع الحجرية التي كانت تؤلف فيما مضى كسوة للجدران ومن هذه القطع أمكن التعرف على عقود زخرفية من نوع حدوة الفرس [3].

د ــ الزخرفة المعدنية :

مما لا شك فيه أن الفنان الأندلسي لم يغفل حرفة أو صنعة إلا وأثراها بخياله وذوقه الرائع وألزمها بصماته في الزخرف والتزيين تمثلت هذه الروائع في تحف معدينة نحاسية وبرونزية فزينت مساجد وقصور الملوك والأمراء من ثريات وتماثيل وأبواب مصفحة بالنحاس ومسارج ومباخر وأواني معدنية واسطرلابات وكرات سموية . كشفت الحفائر الأثرية في منطقة ألميرية عن ثريات معدنية تتجلى فيها جميعًا دقة الصناعة وجمال الزخرفة وهي شبيهة بنظيراتها في الفن القبطي والفن الفاطمي [4] . كما يوجد في متحف غرناطة ثريا كانت في الأصل في المسجد

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، الميرية ... ص: 164.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص: نفسها .

(3) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ، ص: 153 ــ 154.

(4) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص: 174.

الجامع بمدينة ألبيرة تعرف بتاج الأضواء وهي تتكون من قرص من المعدن يتصل بها إثنى عشر ذراعًا ، وينتهي كل ذراع منها بثقب واسع كان يوضع فيه اناء صغير يحتوي على الماء والزيت والفتيل الذي كان يشتعل . فقد استمد صناع الأندلس إلهامهم في صناعاتهم المعدنية من التحف الفاطمية والبيزنطية والقبطية [1] وهناك كذلك ثريا مسجد الحمراء الذي كان ملحق بالقصر في مدينة غرناطة وقد هدم هذا المسجد وحلت محله الكنيسة التي لا تزال قائمة إلى اليوم وقد وجدت الثريا [*] طريقها إلى متحف مدريد وهي تزدان بزخارف نباتية مخرمة وبكتابات عربية تشير إلى تاريخ صنعها [2] .

أما التماثيل فمنها ذلك الموجود بمتحف اللوفر وهو تمثال من المعدن يمثل أسداً فاغراً فاه ترجح نسبته إلى الأندلس وهو متأثر في صنعه بالفن الفاطمي [3]. بالمسجد الجامع بمدينة قرطبة عشرون بابا مصفحة بالنحاس الأندلسي ومخرمة تخريما بديعًا يعجز البشر ويبهرهم ، وأنه كان بكل باب حلقة في نهاية الصنعة وأن باب مقصورة هذا الجامع كان من الذهب [4] .

من أجمل أمثلة المسارج واحد عثر عليه في منطقة غرناطة تتكون زخرفته من أشكال نباتية وحيوانية وكتابية يقرأ على جزئه البارز الذي يمتد فيه الفتيل

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة...ج2 ص:174.

(*) تاريخ صنع هذه الثريا: شهر ربيع الأول 750هـ (1305م) بأمر السلطان محمد الثالث أحد سلاطين بني نصر – انظر محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 177.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق المرجع نفسه ، ص: نفسها .

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 174

(4) عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 170.

كلمة " بركة " ويتجلى على يديه ورقبته الزخارف النباتية الجميلة ، ومن التحف الجميلة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية والمباخر نذكر منها واحدة في معهد بلنسية دي دون خوان " De don juan " ارتفاعها 23 سم و اصلها من غرناطة وهي تقوم على ثلاثة أرجل ولها غطاء مخروطي الشكل يعلوه طائر ذو منقار معقوف وهو مخرم بزخارف نباتية [1] .

الأواني المعدنية نذكر منها إناء صغير في متحف قرطبة مصنوع من البرونز يزدان بكتابة كوفية وزخارف نباتية واغلب الظن أن الكتابة هي كلمة " الملك " مكررة على طراز هذه الكتابة يمكن أن نرجعه إلى العصر الأندلسي، بالإضافة إلى قنينة من الفضة في نفس المتحف لها غطاء متصل بها بواسطة سلسلة وهي تزدان بزخرفة قوامها عقود حدية الشكل وزخارف نباتية وأغلب الضن أن أغلب هذه القنينة كانت معدة لحفظ العطور [2] . من هذه التحف المعدنية كذلك الاسطرلابات هذه الآلات التي حملت تاريخ صنعها من خلال نصوص مكتوبة عليها وعلى سبيل المثال أقدم اسطرلاب وصل إلينا من الأندلس كتب عليه في الجزء الواقع تحت الحلقة التي يعلق منها هذا النص :« في شعبان مما أحكم صنعه ابراهيم بن سعيد الموازيني بطليطلة سنة تنط [*] للهجرة »[3] . في متحف

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص:176.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 175.

(*) كلمة تنط = 459هـ (ت=400) +(ن=50)+ (ط=9) = 459هـ (تنط) أغلب الضن أن استعمال هذا النوع من الحساب له صلة بعلم الفلك وبالسحر ، فنحن نشاهده أيضًا في الأحجية والرقيا التي يكتبها المنجمون وهو كما يلي: أ =1 ، ب = 2، ج=3 د=4 ، هـ=5 ، و=6 ، ز=7 ، ح=8 ، ط=9 ، ي=10، ك=20، ل=30 ، م= 40 ، ن=50، ص=60، ع=70، ف=80 ،س=90، ق=100، ر=200 ، ش=300، ت=400، ف=500، خ = 600، ز=700، ض=800، ظ=900، غ=1000. ــ ينظر محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ،ص:171

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: نفسها

طليطلة اسطرلابان أحدهما كتب عليه : « صنعه إبراهيم بن سعيد السهيلي بمدينة طليطلة في شوال سنة نص للهجرة » . زينت هذه الاسطرلابات بكتابات وزخارف نباتية رائعة أما الكرات السماوية نذكر تلك الموجود في متحف بلينسية وهي من النحاس لها قاعدة تستند عليها تحمل نصا عربيا [1] .

دون أن ننسى بقية التحف المعدنية كالسيوف مثلاً التي كانت تصنع من البرونز والذهب وخاصة التي صنعت لأجل الخلفاء والأمراء التي زينت بزخارف جميلة وكتابات كوفية تدل على عصر صاحبه مثل ذلك الموجود بمتحف مدريد الحربي وينسب إلى أحد سلاطين بني الأحمر بالإضافة إلى الحلي وهي قليلة بحيث لم يصل باحثي الآثار الشيء الكثير ذلك لأنه من الصعب تحديد تاريخ صنعها نظرًا لسهولة حملها [2] .

هـ ــ الزخرفة الخشبية :

التحف الخشبية فهي تتوزع بين المساجد والمدارس والقصور فقد برز الحفر والنقش والتزيين على المنابر والسقوف لمقصورات المساجد وأروع ما نذكره من نماذج المنابر، منبر المسجد الجامع بمدينة قرطبة مصنوع من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود الرطب والمرجان وأوصاله وحشواته من الفضة[3] .

كان سقف المسجد الجامع بقرطبة كله يتألف من لوحات خشبية مسطحة

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق، نفس المرجع السابق ، ص: 174.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ، ص: 178.

(3) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ص: 146.

مصفوفة عرضًا ومثبتة في عوارض خشبية طويلة وعرضية وتكسو هذه اللوحات والعوارض زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات (1) .

بقاعة الأختين بقصر الحمراء في غرناطة باب من الخشب تتجلى في زخرفته الأشرطة المتقاطعة والأشكال النجمية الجميلة كما يوجد في متحف برلين بألمانيا باب من الخشب أصله من الأندلس يزدان بحشوات مرتبة على هيئة نجمة كبيرة مملوءة بالزخارف النباتية الجميلة وهناك صندوق كبير معروض في متحف الآثار بمدريد من الخشب المطعم بالعاج تتجلى فيه الزخارف الإسلامية ينتمي هذا الصندوق إلى عصر المدجنين في الأندلس (2) . فإن الزخرفة الخشبية في االأندلس في دقتها وروعتها من الصنعة والإبداع تساوت أو فاقت ما صنع في المشرق (3) .

و ــ الزخرفة العاجية والبلور الصخري :

لا تكمن أهمية التحف الأثرية في كونها مضرب مثال لروعة الزخرفة ودقة الصنع فقط بل تتعدى ذلك إلى كونها وثيقة تاريخية لها قيمتها في كتابة وتدوين تاريخ الأمم والحضارات البشرية ، ومنها التحف العاجية الأندلسية التي لا زالت باقية شاهدة على عصر عرفت فيه الحضارة أوج تقدمها ورقيها وازدهارها تتوزع بين الأديرة والكنائس الإسبانية ومتاحف العالم . وجدت في قرطبة معامل لنحت العاج وصنع الصناديق وعلب معدة لوضع العطور وحلي التزيين (4)

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ المسلمين ... ص: 384.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 160.

(3) G. Marcais – Opcit – p :95.

(4) G. Marcais – Ibid –p :95

ونذكر بعض الأمثلة لنتعرف على نوع من التحف الشائعة وشكل الزخارف المزينة بها والكتابات الموجودة عليها أقدم مثال للتحف الأندلسية هو دبتش فيه بالداخل تجويفات مستديرة الشكل كانت في الغالب معدة لوضع الدهون التي تستعملها المرأة في زينتها ويحف بالتجويفات الأربع الموجودة في الزوايا الأربعة لهذه التحفة عندما تكون مفتوحة كتابة كوفية تتكرر على التحفة ونصها هو :« هذا ما عمل الانية لعبد الرحمن أمير المؤمنين » ، وجدت هذه التحفة في أول الأمر في أحد أديرة اسبانيا ثم وجدت طريقها على المتحف الأهلي للآثار في مدينة برغش إلى جانب النص الذي تحمل هذه التحفة زخارف نباتية يشاهدها بين التجويفات تنم عن ذوق رفيع في الفن وهي من النوع الذي يعرف بالأربيسك أو زخرفة التوريق (1). هناك تحفة ثانية تحمل اسم الخليفة عبد الرحمن الناصر توجد بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن وهي صندوق من العاج غطاءه مسطح وهو يحمل نصًا يشبه النص الذي قرأناه على التحفة السابقة في طراز كتابته مع اختلاف بسيط في مضمونه إذ نقرأ فيه :« بسم الله هذا ما عمل الانية لعبد الرحمن أمير المؤمنين رحمة الله عليه ورضوانه» ، العبارة الأخيرة من هذا النص تشعرنا بأن الخليفة قد مات وهذا الصندوق صنع بعد وفاته والزخرفة هنا شبيهة بزخرفة التحف السابقة (2) . تحفة ثالثة تحت اسم الخليفة الناصر معروضة هي الأخرى بنفس المتحف السابق وهي كذلك صندوق لكن غطاءه على هيئة هرم ناقص وهو غطاء ابتكر شكله الصناع المسلمون والزخرفة التي تزين هذا الصندوق من نوع زخرفة التحفتين السابقتين أما النص فهو كذلك بالخط الكوفي لكنه يختلف قليلا عن

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ،نفس المرجع السابق ، ص: 184

(2) محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ، ص، 185.

النص السابق إذ نقرأ فيه :« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عمل الانية لعبد الرحمن أمير المؤمنين رحمة الله ونعمته عليه» [1]. التحفة الرابعة معروضة في متحف الفنون الزخرفية بباريس وهي شبيهة في شكلها بالتحف السابقة وهي صندوق مستطيل مسطح الغطاء يزدان بزخارف نباتية ووريدات وعناصر نخيلية برسوم هنسية من خطوط منحنية ودوائر ومثلثات [2] .

لايسعنا المجال هنا لذكر جميع هذه التحف العاجية لكثرتها وتوزعها بين متاحف العالم هذه التحف ذات الدلالة التاريخية باعتبارها وثيقة ملموسة لما تحمله من زخارف جميلة ومن كتابات ونصوص نستدل بها على تاريخ ومسار الشعوب الحضاري .

يتوفر البلور الصخري بكثرة في مناطق عديدة من الأندلس فإنه على مقربة من حصن منتون من عمل قرطبة معدن البلور بجبل شجيران وهو بشرقي قبرة[3] .أما تحف البلور الصخري شأنها شأن التحف العاجية وهي كذلك موزعة بين الأديرة والكنائس ومتاحف الدول الغربية ومن هذه التحف قطع الشطرنج وجدت في أديرة مختلفة نذكر منها على سبيل المثال قطعة في دير ايجر وفي قطلونيا وقطعة في دير فيلانوفا وهي تمتاز بزخارفها النخيلية [4] .

وهناك مجموعة من التحف الجميلة من هذه المادة وهي عبارة عن صحون وكؤوس موزعة عبر كنائس المدن الألمانية وأخرى إيطالية بحيث يوجد بمدينة

---

(1)و(2) محمد عبد العزيز مرزوق، نفس المرجع السابق ، ص: 189.

(3) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ، ص: 148.

(4) محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع نفسه ، ص: 164.

البندقية قارورة صغيرة مصنوعة من البلور الصخري تزدان كلمات عربية دعائية (1) نجد معظم هذه التحف في الكنائس وإن دل هذا على شيء وإنما يدل على أنها قد سحرت المسيحيين بجمالها فوضعوها في أعز مكان لديهم وهي الكنيسة وهذا ينطبق كذلك كما لاحظناه سابقا على التحف العاجية ومن صناعة البلور الصخري اهتدى الإنسان إلى صناعة الزجاج مقلدًا بذلك ما كسبه من مهارة في صناعة البلور الصخري من زخرفة وتزيين.

ز ــ الزخرفة النسيجية والطنافس (*) :

زخرفة المنسوجات هي الرسوم والسور بالألوان المختلفة على الأقمشة وذلك باستخدام الأصباغ أو نسج القماش من خيوط مختلفة الألوان أو طرز على القماش بعد نسجه بزخارف شتى أو تزيينه برسوم لعناصر نباتية أو حيوانية لأجزاء منه إن الجغرافيين العرب في القرون الوسطى قد أشاروا في كتبهم إلى قيام صناعة النسيج في بلاد المغرب وبلاد الأندلس وذكروا الكثير من المعلومات التي تلقي أضواء على هذه الصناعة . عرفت اشبيليا نسيج القطن واشتهرت بصناعة نوع من الأقمشة تحول دون أن يبلل الأنسان بالمطر وقت سقوطه . وأنه كان فيها طراز ينسج فيه اسم السلطان ، وكان بألميرية أيام المرابطين من طرز الحرير ثمان مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والإصبهاني والجرجاني والستور المكللة والثياب المعينة والخمر العتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير (2)

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 164.

(*) الطنافس : جمع طنفسة تدخل تحت مفهوم الأبسطة (جمع بساط) لكن لها ميزة تفردها عن كل ما يفرش على الأرض هي الخمل الذي يعطي سطحها ومن هنا وجب أن ندقق في هذه الكلمة فلا نطلقها إلا ما كان متوفرا فيه الخمل . انظر محمد علد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص:135.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 122.

في عصر المرابطين تمتعت ألميرية بالمركز الأول في صناعة المنسوجات الحريرية بالأندلس (1) ، وجود دور الطراز القائمة بهياكلها والمشرفين عليها وعمالها إذ نظمت مصانع تنتج أقمشة وسجادًا من جميع الوجوه بأجمل مصنوعات الشرق في القرون الوسطى (2) . هذه المؤسسات التي كانت منشرة في طول البلاد وعرضها قد ساهمت في تقدم صناعة النسيج في العالم الإسلامي هذه الدور كانت من تأسيس الدولة أو تشرف عليها لكي ينسج فيها ما تحتاج إليه من أقمشة ويحتاج إليه السلطان وحاشيته وقد دخل الدور الطراز إلى الأندلس مع عبد الرحمن الداخل(3) .

إن صناعة النسيج بألميرية تأثرت إلى حد كبير بصناعته في المشرق الإسلامي فكانت تصنع بالميرية أقمشة حريرية على مثال الأقمشة المصنوعة في بغداد وجرجان واصبهان (4) .

من ضمن ما نشر مورينو في كتابه الفن الإسلامي في اسبانيا يختار الكاتب قطعة واحدة تحمل نصًا تاريخيًا وهي محفوظة في الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في مدريد يقول: " لعلها في الأصل كانت هدية من أمير مسلم إلى أمير مسيحي اسباني أو كانت إحدى غنائم الحرب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين أنذاك " ويسميها مورينو بمئزر هشام بن الحكم منسوجة من الكتان الرقيق تزدان على طولها بشريط عريض منسوج بالحرير المختلف الألوان وبخيوط من الذهب

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ،ـ الميرية ... ص: 156.

(2) ليفي بروفينسال ، نفس المرجع السابق ، ص:52.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 128.

(4) السيد عبد العزيز سالم ، الميربة ... ص: 158.

هذا الشريط منقسم إلى ثلاثة أقسام في العلوي والسفلي منها كتابة كوفية تتجه رؤوس الحروف فيها إلى الداخل وهي ميزة بارزة ،تميز القطع الأندلسية عن غيرها أما القسم الأوسط من الشريط ففيه مناطق بداخلها رسوم آدمية وصور حيوانية من ذوات الأربع وطيور (1)

من جملة الأمثلة الكثيرة التي وصلت إلينا من النسيج بعضها يحمل تاريخ نسجه وبعضها يمكن نسبته إلى هذا العصر على أساس تشابه زخرفته بالتحف الأندلسية آنذاك كالتحف المصنوعة من الخزف والفخار والعاج وغيرها . فإذا كانت بقايا القطع الخزفية في أماكن معامل الخزف تسمح بمعرفة المادة الخزفية فإنه على العكس بالنسبة للطنافس بحيث لا نستطيع تحديد عصر وانتماء هذا النسيج إلى منطقة ما (2) . لقد برع الفنان الأندلسي في زخرفة وتطريز قطع النسيج كما برع في بقية الزخارف الأخرى كالعمران والتحف المصنوعة والتي ساهمت في رقي وتطوير هذه الحضارة من كافة الجوانب. أما الطنافس فهي ابتكار القبائل الكثيرة الترحال وطبيعة حياته الغير مستقرة فرضت عليهم التخفيف من المتاع قدر المستطاع مما جعلهم يهتدون إلى هذه الصنعة وذلك من الاستفادة من صوف حيواناتهم وذلك بعد حلقها وغسلها وتجفيفها ومشطها وغزلها خيوطًا ونسجها بصورة طنفسة . والطنافس الأندلسية نلمس في زخرفتها هذه الروح الهندسية سواء في المتن أو الحاشية كان يصنع في مدينة بسطة الأبسطة المصنوعة من الديباج الذي لا نظير له ، الأندلسيون في مدينة مورسيا كانوا يصنعون بسطًا غالية وجميلة ولأهل مورسيا مهارة لا تبارى في عمل وزخرفة هذه البسط (3) .

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص:128.

(2)G. Marcais . opcit . p :139.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 137.

ما نستشفه مما سرده هؤلاء المؤرخون عن صناعة الطنافس في الأندلس أنها كانت صناعة جد متقدمة وراقية فكانت تقدم على شكل هدايا إلى الأمراء وتباع بأثمان غالية خاصة بأسواق المشرق كونها أثبتت دقتها وروعتها في الصنع والزخرفة . ما يميزها كذلك عن طنافس المشرق أنها كانت مفرطة في الطول بالنسبة للعرض وأن الزخارف الغالبة عليها هي الزخارف الهندسية والألوان المستعملة فيها محدودة واللون الأحمر بارز [1] . لقد تمكن الفنان الأندلسي في تثبيت بصمات فنه الزخرفي الراقي في سجل التاريخ من زخرفة وتطريز بقطع نسيج وصنع لطنافس لا زالت محفوظة ما تبقى منها إلى اليوم في متاحف العالم الكبرى كشاهد عيان لبراعة شملت ومست جميع ميادين ومجالات الصنائع من تحف ثابتة ومنقولة أي من معمار ونسيج وخزف وفخار وعاج ومعدن وغيرها.

ي ــ زخرفة الكتاب :

تتجلى فنون زخرفة الكتاب في المصاحف والكتب المصورة أي كل ما يتصل بأسلوب الخط الذي كتبت به هذه المصاحف والزخارف التي تزين صفحاتها وغلافاتها المزينة بالصور الموضحة لمضمون مخطوطاتها وتهذيب حاشية الكتاب وتزيين صفحاته وكل ما يتصل بفن التغليف والتجليد يقول المقدسي عن أهل الأندلس انهم كان أحذق الناس في الوراقة [2] .

كان الخلفاء الأندلسيون يستقدمون إلى قصورهم أمهر المجلدين من وطنيين وأجانب تزخر مكتبة الأسكوريال بمدينة مدريد بمخطوطات أندلسية ومن أجمل هذه التحف

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 139.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 216.

أو المخطوطات صفحة من مصحف من مجموعة من مدينة فلورنسا مكتوبة بالخط المغربي وتزدان بزخرفة رائعة على هيئة شجرة تمتد أفقيًا على عرض الصفحة من أعلى إلى أسفل وفي الوسط تخرج منها فروع تحمل أوراقا [1] .

اشتهرت قرطبة بفن التجليد وصناعة الجلود بحيث صنعت من الجلد القرطبي جلودا لكتب كانت آية في دقة الصناعة وجمال الفن الزخرفي . في قرطبة نفسها جند فريق هائل العدد من الكتبة والمجلدون والمزخرفون استقدم بعضهم من صقلية بل وحتى من بغداد . لقد استطاع أحد المؤرخين القول بأن 170 امرأة في قرطبة الشرقية وحدها يعملن يوميًا في نقل ونسخ من القرآن بالخط الكوفي[2] كما عرفت الأندلس فن تصوير الكتب الذي أبدع فيه الوزراء وأهل الدولة ومن ضمن هذه المخطوطات المصورة مخطوط موجود بالمكتبة الأهلية بباريس وهو يدور حول علم النبات والأعشاب الطبية ، هناك مخطوطة أخرى محفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما وهي تدور حول قصة غرام " بياض ورياض " ، إذ نرى فيها صور للعمائر الأندلسية بعناصرها التي تميزها عن غيرها [3] . ومخطوطة أخرى في مكتبة الأسكوريال بمدينة مدريد عنوانها " سلوان المطاع في عدوان الأتباع " وهي من تأليف ابن خضر الصقلي ، نلمح في صورها طابعًا جديدًا لم نألفه في المخطوطات الأندلسية الأخرى ، إذ تتجلى في ملابس الأشخاص وأسلحتهم وخيامهم وهذه تأثيرات أوروبية واضحة الأساليب الغريبة ، بحيث تنسب هذه المخطوطة إلى القرن العاشر الهجري وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الصور

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 219.

(2) ليفي بروفانسال، نفس المرجع السابق ، ص: 70.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: 221 .

هنا من عمل مصور من المدجنين ، وهنا يجب أن نفرق بين فن التصوير عند المدجنين وفن التصوير عند المستعربين فهذا الأخير يعكس في صوره تقاليد الفن الإسلامي[1] .

اقتبس المسلمون عناصر زخرفتهم من الكتابة العربية أو من الخطوط الهندسية والعناصر النباتية والحيوانية ، ليس ثمة من فن استخدم الخط في الزخرف بقدر ما استخدمه الفن الإسلامي بسبب اهتمام الناس به من جهة وقابليته للتطور من جهة أخرى بحيث بلغ ذروته في القرنين الخامس والسادس الهجريين [2].

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص:221.

(2)أنور الرفاعي ، نفس المرجع السابق ، ص: 136.

الفصل الثالث

1 ـ تلمسان جغرافيا وتاريخيا .

2 ـ الفنون الزخرفية بتلمسان

أ ـ الزخرفة على العمائر

ب ـ الزخرفة الفخارية والخزفية

ج ـ الزخرفة الحجرية والرخامية

د ـ الزخرفة الخشبية

هـ ـ الزخرفة المعدنية

و ـ الزخرفة النسيجية

ز ـ زخرفة الكتاب

1 ـ تلمسان جغرافيا وتاريخيا:

تحتل تلمسان موقعا جغرافيا رائعا ، تتوسط ملتقى الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، إنها المدينة الوحيدة التي تجمع بين التل والصحراء فهي مطلة على البحر ومطلة على الصحراء ، اعتبرت على مر العصور نقطة ومركزًا مهما للحرب والتجارة والعلم والسياسة .

ترتفع عن سطح الأرض بحوالي 830م تمتاز تضاريسها بثراء كبير وتنوع في سطح الأرض من جبال وسهول وتلال وجداول وأودية ومناخ معتدل ونقي ، تتألف جبال تلمسان من أربع سلاسل تكاد تكون متوازية ، سلسلة جبال تنوشفي المطلة على مدينة سبدو الواقعة نحو الجنوب ثم سلسلة جبال بني إسماعيل (بني صميل) الممتدة من أولاد ميمون شرقا إلى مدينة سبدو غربا ثم سلسلة جبال رأس عصفور المطلة على سهول مدينة وجدة المغربية ثم سلسلة جبال لالة ستي المطلة أو المشرفة على مدينة تلمسان (1) .

يقول المؤرخ يحيى بن خلدون عن تلمسان :« اقتعدت بسفح جبل ودون رأسه بسطًا أطول من شرق إلى غرب عروسًا فوق منصة الشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطل منه فحص أفيح معد للفلاحة»(2) . تلمسان وما حولها اقليم فسيح من أوفر اقاليم المغرب خيرات ووسائل رخاء فهي منطقة سهول وهضاب كثيرة الوديان وافرة الأمطار في الشتاء (3) . تحيط بالمدينة سهول

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:33.

(2) يحيى بن خلدون، بغية الرواد ، ج1 ، ص:86.

(3) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته ... م 2 ، ج3 ، ص: 120.

من جهاتها الأربع تمتاز بجودة تربتها وغناها وتمتد عليها بساتين فيحاء ورياض غناء، تتخلل هذه السهول جداول تجري بالمياه على مدار السنة بالإضافة إلى تلك الأودية الثلاثة المعروفة وهي واد تافنة ، واد الخميس ،وادي يسر . رغم موقعها في إقليم لمناخ معتدل حار صيفًا إلا أنها تمتاز بمناخ معتدل حتى في فصل الصيف لأن الرياح الصحراوية لا تؤثر فيه كون السلاسل الجبلية لجبال الأطلس تقيها من تسرب هذه الرياح كما يمتاز هذا المناخ بشدة برودته شتاءً لارتفاعها عن سطح البحر ».

أما عنصرها البشري فهو خليط بين حضر وحوز وبدو وهو من أصل عربي وبربري اختلطوا بالأندلسيين والتركيين ، بالإضافة إلى العنصر اليهودي ، وجماعة من الزنوج وهم ذرية لأولائك العبيد الذين استقدموا من مواطن الزنج قديمًا ومن السودان خاصة . ما نعلم عن تسميتها الأولى هو اسم أقادير وهي لفظة زناتية بربرية وتعني الصخرة ذات الانحدار الوعر ، وهو اسم يتطابق على موقعها ولا زال هذا الاسم يطلق إلى يومنا هذا على الحي الذي كانت به المدينة القديمة واسم اقادير هو ما يعادل العبارتين (جدار قديم) أو (مدينة محطمة) فالمعنى الأول يدل على أن المدينة عريقة في القدم (1) . أما اسم بوماريا فهو اسم روماني وهذا لا يعني أن المدينة من تأسيس الرومان بل هي اقدم من وجود الرومان في هذه الناحية ، وفي موقع تلمسان الحصين أقام الرومان معقلا يسمى بوماريا وهو الاسم القديم للبلد(2) . أما يحيى بن خلدون فيقول :« ... تسمى بلغة البربر تلمسين كلمة مركبة من تلم ومعناها تجمع ، وسن ومعناها اثنان الصحراء

---

(1) محمد بن عمرو الطمار، نفس المرجع السابق ، ص:08.

(2) حسين مؤنس ، نفس المرجع السابق ، م2،ج3 ، ص: 120.

والتل... ويقال تلشان وهو أيضا مركب من تل ومعناه لها ، وشان أي لها شان» [1] ومعنى تلمسان هي أرض تنعم بالمياه والأعشاب والأشجار . وفي لغة الأطلس عن آيت عطا بالمغرب الأقصى كلمة تلمسين ومعناها أرض منبسطة بين الجبال [2] .

أثناء حصار تلمسان القديمة أي أقادير بنى المرابطون مدينة جديدة بالمكان الذي نزلت به جيوش يوسف بن تاشفين غرب تلمسان سميت هذه المدينة الجديدة بتقرارت ومعناه المحلة بحيث أن المدينة الجديدة أصبحت هي المركز الرسمي للحكومة المرابطية ، عظم شأنها وكثر عمرانها وهكذا أصحبت تلمسان مدينين أقادير او تلمسان القديمة وتاقرارت أو تلمسان الحديثة التي صارت تلمسان الحالية بعد أن اندثرت أقادير [3].

---

(1) يحيى بن خلدون، نفس المصدر السابق ، ج1 ، ص:85.

(2) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:09.

(3) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 65.

2 ـ الفن الزخرفي بتلمسان :

إن عملية الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس شملت جميع جوانب الحياة المادية والمعنوية والدينية والدنيوية ، فقد نقل الفاتحون معهم ما كان لديهم من مهارات فنية وصناعية قدموا بها من بيزنطة والشام ومصر واستقروا بها في بلاد المغرب والأندلس ، وابتكروا فيها ومزجوا بعضها بالبعض الآخر وأعطوها الطابع الخاص بأقاليم الفتح الجديدة . والحق أن العرب والبربر تآلفوا من أول الأمر واختلط بعضهم ببعض ربما بسب تشابه البيئة الطبيعية ونظام حياة الإنسان فيها واتجاهات تفكيره وليس من المبالغة أن نقول أن البربر وجدوا في الإسلام الحل السليم الذي وجده العرب قبلهم بمسائل الحياة وتنظيمها فكان اقبالهم عليه عظيمًا (1) .

هذا الطابع الذي يظهر فيما بعد كعلامة مميزة لفنونهم الزخرفية عن باقي فنون أقاليم الخلافة الإسلامية في المشرق ، بحيث يمتاز هذا الطابع بإبداع في تصاميم البناءات وكثرة الزخارف المتشابهة والبديعة المشتملة على أحجار الرخام والجبس المنحوت بدقة والمقطع تقطيعًا مشكلاً صورًا هندسيًا رائعة تشتبك اشتباكًا غريبًا وأكاليل زهور نقوشها على جدار أبنيتهم ، كذلك امتاز هذا الطابع بنحت ونقش أسماء المشيدين وأشعارهم على ستائر الجدران بخطوط عربية بديعة تزيد هذه الزخارف رونقا وجمالا مما يدل على لطافة ذوقهم ورقي حضارتهم وازدهار فنونهم إلا أن هذا الفن الزخرفي في عاصمة بني زيان ينحصر في جوامعها ومساجدها وبعض أضرحتها ، أما الدور والقصور والحمامات والمدارس وغير ذلك من الأبنية القديمة التي كانت تفتخر بها تلمسان فإنها اندثرت وانطمست

---

(1) حسين مؤنس ، نفس المرجع السابق ،ج1 ، ص:109

معالمها وآثارها منذ أمد بعيد بفعل تقلب أحوال الزمان ولم يبق منها إلا القليل كمدرسة العباد بجوار جامع سيدي أبي مدين شعيب [1]

ومن خصائص هذا الفن كذلك وجود الشرفة المسننة من الخشب فوق الأبواب الكبرى والنوافذ واستعمال القوس المتطاولة والقوس المليئة بالمقرنصات[2] (شكل 1) . لم يقتصر الفن الزخرفي في عاصمة بني زيان جانب المعمار فقط بل تعداه إلى جوانب أخرى من تحف منقولة وأخرى ثابتة حجرية ومعدنية وخشبية وغيرها وكان لهذه الحرف شيوعًا وانتشارا كبيرا بالمدينة حتى أن بعض الأحياء نسبت تسميتها إلى حرفة من هذه الحرف المذكورة التي ساهمت في رقي وازدهار حضارة تلمسان ومن هذه الأحياء حي الفخارين ، الصباغين ، الخرازين السراجين، الحدادين وغيرها من الأحياء والأزقة والأسواق .كما تجدر بنا الإشارة للاعتراف أن هذه الصناعة لم تكن حكراً على الرجال فقط بل النساء أيضا كن يشاركن فيها فكانت لهن يد ماهرة في صنع الأثوبة الصوفية والخمائل والتطريز والخياطة وذلك في بيوتهن[3] .

قليل من هذه الصناعات لا زالت قائمة تقاوم عصر الآلة والتكنولوجيا الحديثة ومنها من اندثر ولم يبق منه إلا تسمية الحي المنتسب للحرفة التي كانت قائمة به ، وما يهمنا من هذه الصناعات هو دراسة جانبها الزخرفي محاولين بذلك إبراز مستواها الفني الزخرفي حتى نتعرف على مهارة الفنان التلمساني وذوقه ومدى تجسيده لحسه الواقعي أو الخيالي على هذه الانجازات والتحف المصنوعة، ونباشره بالاستعراض على غرار ما قمنا به في الفن الزخرفي الإندلسي .

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 159 ـــ160.

(3) انور الرفاعي ، نفس المرجع السابق ، ص: 59.

(3) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 204

أ ـــ الزخرفة على العمائر :

العمران هو أهم واجهة لإبراز معالم الزخرفة جلية وواضحة ، كونه لا زال قائمًا مما يسمح للدارس أو الباحث استخلاص الحقائق . يقول ابن خلدون« ويختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ، ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون »(1) .

معالم تلمسان الزخرفية كثيرة تعددت في مساجدها ومدارسها وأضرحتها وقصورها وحماماتها . المساجد وهي أربعة : المسجد الجامع الأعظم ، جامع سيدي ابراهيم المصمودي جامع سيدي أبي مدين شعيب ، جامع سيدي الحلوي ، وهذه الجوامع الأربعة تقام بها صلاة الجمعة وصلاة العيدين (2) . من أجمل لزخارف الجصية في تلمسان ما نراه في مسجدها الجامع الكبير الذي يتضمن كتابة أثرية تشير إلى أنه أنشئ سنة 530هـ / 1130م هذه الكتابة المنحوتة على الجص تقع على الأوجه الأربعة من قبة محراب الجامع الكبير كتبت بأسلوب أنيق ليست محصورة في إطار ولا يتخللها تزويق (3) . إذ نشاهد زخارف رائعة في أجزاء المسجد ولعل أروعها ما نراه في قبة أمام المحراب (لوحة رقم 8) والتي تتخللها العقود ، هذه القبة مزينة بزخارف نباتية محفورة في الجص بعضها مخرم نلمس الضوء من خلال ثقوبه (4) يشتمل الجامع الأعظم كغيره من جوامع تلمسان على قاعة للصلاة وصحن أو فناء وأروقة تحيط بالصحن ومئذنة ، قاعة الصلاة

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ، ص:322.

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 86،

(3) رشيد بوروبية ، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية ، ص: 65

(4) محمد عبد العزيز مرزوق ، المرجع نفسه ، ص: نفسها.

فضاء واسع يحتوي على 72 سرية عظيمة من الحجر الصلب تحمل قناطر مقوسة أو عقود لا زخارف عليها ، يتألف الجامع من 6 بلاطات و13 رواقا ، أوسعها الرواق الأوسط الذي جعل المحراب والقبان فيه، هذا الرواق أجمل ما في القاعة (لوحة رقم9) لما يحتوي عليه من النقوش الجصية المحفورة والبارزة التي زخرف بها إطار المحراب والقبتان الوسطى والتي أمام المحراب . القبة الوسطى مزخرفة ومحفورة بتخاريم عريضة ولامعة ، أما التي أمام المحراب فإنها مضلعة الشكل مؤلفة من عدة قناطر صغيرة متتالية كل قنطرة تحتوي على ثلاثة اجزاء وشيت القناطر المتجمعة في الزوايا بتماثيل مدلات[1] .

في قمة الفقرة ترى عقود ضيقة مشتركة وقد وضعت هذه القبة في اطار مربع الشكل يحتوي على إفريز نقش بخط أندلسي أنيق إشارة إلى تاريخ بنائه والآمر بإنشائه[2] . إضافة إلى قبة المحراب فإن قاعدتها تقوم على 12 عقدًا تقاطع فيما بينها تاركة قبيبة مقرنصة زينت الفراغات الناشئة من تقاطع العقود بتوريقات مفرغة بالجص تتخللها شمسيات صغيرة[3] . للإشارة فقط ذكر المؤرخون أن اسم الأمير الذي أمر بهذا العمل قد كشط لكن الكاشط غفل عن كشط التاريخ الذي هو جماد ي الثانية 530هـ (1130م) وهكذا أبى التاريخ إلا أن يعترف لذوي الفضل بفضلهم وأمكن معرفة اسم القائم بهذا العمل وهو أمير المسلمين علي بن يوسف

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 214 –215.

(2) W. Et . G. Marcais – Opcit – p :146

(3) W. Et . G. Marcais- Ibid ,p :142.

بن تاشفين (*) اللمتوني الذي كانت تلمسان من جملة ولاياته في ذلك العهد [1] .
رغم أن اسم المؤسس إنمحى فالتاريخ الذي نقرأه في الكتابة يسمح لنا يقينًا بإرجاع الفضل في هذا البناء إلى علي بن يوسف بن تاشفين الأمير المرابطي الذي خلف والده سنة 500 هـ 1142م [2] .

قوس المحراب على شكل حدوة الفرس يحمله عمودان رشيقان من المرمر (شكل رقم 2) وهنا ترى أحجار منقوشة تتخللها أحجار صقلية ويحد هذه الأحجار كلها قوسان زين القوس المحيط بها من الأسفل بنقوش عريضة على شكل عناصر نباتية من أوراق الأشجار وأزهارها وهي تلمع لمعانا حول نقطة مركزية وحيدة وضعت على وترة القوس الصغير الجامع بين تاجي العمودين [3] .(شكل رقم 6) .

أما جامع سيدي أبي الحسن الذي يمتاز باللطافة والحسن والرقة هو منسوب إلى العالم الجليل سيدي أبي الحسن علي بن يخلف التنسي (*) . بني هذا المسجد

(*) علي بن يوسف بن تاشفين : هو ابن يوسف بن تاشفين، مؤسس الدولة المرابطية . قد ولي الخلافة بعد أبيه ولعل اهم ما ميز عهده هو النفوذ الذي بلغه الفقهاء كما أنه أقام نظامًا يقضي بتعيين فقهاء مستشارون للقاضي وعددهم أربعة . وفي سنة 530هـ في خلافته تم تشييد الجامع الأعظم بتلمسان في شرق القصر القديم كما يدل على ذلك المنحوت على افريز القبة . توفي سنة 537 هـ . انظر محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:46 ـ49.

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:215.

(2) رشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق ، ص:65 .

(4) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، المرجع نفسه ، ص: 218.

(*) سيدي أبي الحسن (بلحسن) : هو العالم الجليل سيدي أبي الحسن علي بن يخلف التنسي المعاصر لسلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن بحيث شيد هذا المسجد ونسبه إلى الشيخ الجليل إكراما له لأنه أفضل علماء عهده و أتقاهم وأروعهم .

حسب ما تنص عليه كتاباته المنقوشة في صفحة من المرمر الأخضر مثبتة في الجدار الغربي بخط أندلسي أنيق تذكار للأمير أبي عامر إبراهيم أبي يحيى يغمراسن بن زيان عام 696هـ وقد كرر هذا النص بخط كوفي على حاشية فوق المحراب [1] . تحتوي قاعة الصلاة على ثلاثة أروقة سقفها محمول على صفين من الأعمدة المرمرية المكللة بتيجان في غاية الزخرفة واللطافة ، هذه الأعمدة تجمع بينها عقود على شكل حدوة الفرس والسقف مصنوع من خشب الأرز المنقوش (اللوحة رقم 10) بأشكال بديعة محرابه الواقع في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فإن زخرفته جصية باهرة . وزخرفة قبة هذا المحراب الصغيرة بأشكال مشابهة للطبيعة (لوحة رقم 11) ، كتلك التماثيل المدلاة كأنها في الكهوف والمغارات . تتكئ هذه القبة على أعمدة من المرمر داخلة في زوايا مضلعة وهذه الأعمدة تحمل قوس فتحة المحراب ، هذا المحراب المزخرف بأجمل وأروع الزخارف النباتية والهندسية ، وكتابات بخطوط كوفية مزينة بحواش منقوشة ومزخرفة بأشكال هندسية لامعة [2] .

أما عن جدران هذا المسجد الذي تزيده رونقا وجمالا العارضات الخشبية المزخرفة كلها لتخاريم بديعة إلا أن زخرفة هذه العارضات الخشبية قد اتلف معظمها ولم يبق منها إلا القليل ، بخلاف زخرفة الجدران فإنها باقية على حالها ولها قناطر صغيرة مسننة كما أن زواياها لا تزال مغشاة بنماذج مكررة مرسومة في مربعات فوق هذه الزخرفة الجميلة توجد نوافذ صغيرة مقوسة ذات أشكال هندسية مشتبكة اشتباكًا عجيبًا أي ملئ فراغها بزخرفة مصنوعة بنظام محكم

---

(1) W . et . G . Marcais – opcit – p :170.

(2) W . et . G . Marcais- ibid – p :172-173.

وكل ذلك تحيط به حاشية محتوية على خطوط عادية بسيطة أضف إلى ذلك قاعة الصلاة محاطة بإفريز يحتوي على أشكال وزخارف هندسية جميلة [1] . توجد بواجهته الشرقية مئذنة معتدلة القامة متناهية في الرشاقة تحتوي أوجهها الأربعة على زخرفة ذات أشكال هندسية بديعة، فالمسجد يعتبر أجمل بناء فني في مظهره العام في أبهة بنائه فهو على صغره غاية في الأناقة ونقوشه وزخرفته في منتهى الجمال والروعة بحيث كان خاصًا بالأمراء وأصحاب الدولة الزيانية [2] .

جامع العباد الذي ينتسب إلى شيخ المشاييخ العالم الجليل الولي الصالح سيدي أبي مدين شعيب[*] فالباب الذي يقابل ضريح الشيخ به زخرفة رائعة (لوحة رقم 12) يحتوي هذا الباب على قنطرة عظيمة البنيان على شكل حدوة الفرس يحيط بهذا القوس إطار بديع ينقسم إلى هذا الإطار إلى قسمين القسم الأول مكون من حاشية عريضة دائرية تحيط بالقوس ، القسم الثاني مكون من زاويتين وقد زخرف الإطار بأشكال عربية محتوية على أحجار الفسيفساء ذات ألوان أربعة الأخضر ــ الأصفر ، الأبيض ، الأسمر ، وفوق ما ذكر تشاهد حاشية أخرى جارية فوق هذا الإطار المستطيل الشكل رسمت في داخلها بالأبيض خطوط اندلسية أنيقة نصها : " الحمد الله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان

---

(1) و(2) الحاج محمد بن رمضان الشاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 230.

(*) سيدي أبي مدين شعيب : شيخ المشاييخ العالم الجليل الولي الصالح سيدي أبى مدين شعيب بن الحسن الأنصاري الأندلسي الإشبيلي ولد بإشبيلية حوالي 520هـ . تخرج على يده ألف شيخ وكان زاهدًا فاضلاً عارفا بالله ، توفي سنة 594هـ ، فحمل ودفن في العباد مدفن الأولياء والأوتاد ــ انظر ابن مريم الشريف المليتي ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ص: 109.

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام 739هـ نفعهم الله به "[1]
فوق هذه الحاشية نشاهد زخرفة هندسية من الآجر المزين بصفحات من المينا السمراء ومن حاشية خضراء تكون من خمسة رسوم على شكل الورد حول نجوم ذات ثمانية رؤوس (شكل رقم 7) افريزًا فخماً لهذا الباب العظيم المكلل بالقرميد محمول على صف من المساند المزدوج ، أما دائرة القنطرة فإنها مغشاة أيضًا بزخرفة منظمة ذات ألوان ثلاثة الأبيض ، الأصفر ، الأسمر ويصعد إلى الجامع بمدرج مفروش بالرخام تعلوه قبة بديعة المنظر [2] . في هذا الشأن يصف لنا هذا المسجد ابن مرزوق في مسنده فيقول :« ... اتصفت بالحسن والوثاقة أشكال أنفق فيه مقدارًا جسيما ومالا عظيمًا . وكان على يد عمي صنو أبي الصالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر مرزوق وعلى يدي اشتمل على الوضع الغريب وهو أن سقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع وقد رتبت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة فلا يختلج في النفس شائبة ولا يعرض لها وهم ، وكلها مبنية إحكاماً بالآجر والقصة . واشتمل المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس مذهب كله ... أما الباب الجوفي الذي يفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ وإلى الشارع وهو باب من النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منهما من النحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتكرة العمل ، وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة ... وعلى مدرجه قبة من عمل مقرنص غريبة الشكل قليلة المثل . صومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان . كل جهة من

---

(1) W. et .G. Marcais – opcit ,p ;240

(2) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 290.

جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النوع والإحكام ، وذهبت تفافيح جامورها بثلاث مائة وسبعين دينار ذهبًا »[1] .

أما جامع سيدي إبراهيم بن محمد المصمودي[*]هو نموذج يحاكي جامع سيدي أبي مدين شعيب في قاعة الصلاة ذات الأربع بلاطات وخمسة أروقة ومئذنة وصحن ذي حوض مستدير ونافورة وتحيط به أروقة أما زخرفته الفنية بسيطة جدًا ولا تستوقف الزائر بعكس الضريح الذي كان حظه وافر من الزخرفة الفنية الراقية [2] .

أما جامع سيدي الحلوي[*] في الشمال الشرقي من المدينة به ثلاثة أبواب شبيه بجامع سيدي أبي مدين شعيب واحد غربي وآخر شرقي والثالث هو الأكبر والأعظم يمتاز بخصوصية زخرفية قريبة من باب سيدي أبي مدين ، فإنه يقابل الباب عند الدخول منظر رائع الجمال مكون من شرعة محمولة على ثلاثة عشر مسندا منقوشة بدقة وتحتها إطار الباب مزين بالفسيفساء رغم ما أصاب هذا الباب من نوائب الزمن إلا أن زخرفته المشكلة لهيئات هندسية مشتبكة وأشكال زهرية مختلفة وألوان الفسيفساء المتنوعة [3] .

---

(1) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 132 — 133.

(*) سيدي ابراهيم المصمودي : الشيخ العالم الولي الزاهد ، سيدي ابراهيم بن محمد المصمودي أصله من صنهاجة قرب مكناسة بالمغرب ، توفي 805هـ وحسب محمد بن يعقوب توفي سنة 804هـ دفن بروضة ال زيان ملوك تلمسان . انظر ابن مريم الشريف المليتي، نفس المصدر السابق ، ص: 64 —65

(2) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:252.

(*) سيدي الحلوي : هو الرجل الصالح أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي ، رأيت هذا الشيخ بالسوق وبيده طبق من عود فيه الحلوى للصبيان الصغار . تولى القضاء باشبيلية ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها ولقب بالحلوى ، انظر ابن مريم المصدر نفسه ، ص: 68.

(3) الحاج بن محمد بن رمضان شاوش ، المرجع نفسه ، ص: 309 —311.

" الحمد الله أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبوعنان فارس ... مولانا السلطان أبي الحسن علي بن مولانا سلطان أبي عثمان بن مولانا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام أربع وخمسين وسبع مائة للهجرة " ، تقع هذه الكتابة الإفريزية على القوس المعتلي مدخل جامع سيدي الحلوي ، لها شبه شديد بكتابة جامع سيدي أبي مدين (1) .

يحتوي الجامع على صحن مربع الشكل مفروش بالفسيفساء ذات الألوان المختلفة في واجهته الشمالية الغربية صومعة فخمة شبيهة بصومعة سيدي أبي مدين من حيث الوضع والزخرفة معا . فمحراب الجامع مفتوح في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فتحته المقوسة محمولة على عمودين من المرمر مكللين بتاجين مزخرفين . أما قبة المحراب فهي مزخرفة بتماثيل مدلاة كبقية قباب المحارب الأخرى(لوحة رقم13) . أما القبة الأخرى فهي سقف من الخشب مربع الشكل (لوحة رقم14) لكنه أعلى من سقف الجامع وما يزيده رونقًا وجمالاً قناطر الأروقة المقوسة على شكل حدة الفرس تحملها أعمدة من المرمر عليها تجان في منتهى الجمال. أما جدران الجامع فكلها مزينة بستائر جصية تزيد الجامع أناقة وجمالا(2) يصف ابن خلدون هذه الجدران :« كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسدًا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريمًا بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء »(3) أما سقفه المصنوع من خشب الأرز فإنه مزخرف بنقوش باهرة سوف نراها في الزخرفة الخشبية .

---

(1) رشيد بورويبة، نفس المرجع السابق ، ص: 97.

(2) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 311 ــ312.

(3) عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر السابق ، ص: 321.

معظم هذه المساجد السالفة الذكر تسميتها مرتبطة بشيخ صالح أو عالم جليل أفنى حياته في العلم والعبادة وتلقين أصول العلوم الدينية والدنيوية وتكريمًا لأعمالهم ومآثرهم الخالدة التي قدموها للمجتمع وأناروا بها الطريق للأجيال التي عاصروها والتي جاءت بعدهم . أمر أمراء ذلك الزمن بتشييد أضرحة لهم تعبيرًا عن مقامهم العالي في الدنيا والدين وتشهد لهم عما قدموه من أعمال جليلة حتى تبقى كذلك مقصدًا لأهل العلم والدين فيما بعد .

يتكون ضريح سيدي أبا مدين شعيب من جزئين القبة أين يوجد ضريح الولي الصالح ومن فناء أو ساحة أمامية. ندخل إلى الضريح بواسطة باب صغير معقود بعقد حذوي يحيط به إطار من البلاطات الخزفية المتعددة الأشكال والألوان أين تحتل الزخرفة النباتية حيزًا أكبر من الزخرفة الهندسية وهي تتمثل في شبكات من المراوح النخيلية والزهرات الصغيرة المتعددة الألوان ويغلب على البلاطات الخزفية اللونين الأصغر والأخضر الفاتح والأخضر الداكن والأزرق[1] . عندما ينزل الزائر المدرج المفروش بمربعات من الزليج يرى على يمينه مقبرة صغيرة تضم رفات العلماء من أهل تلمسان ، وعلى اليسار في الرواق الشمالي توجد بئر عميقة ذات ماء عذب يحيط بها بناء دائري على شكل حزام من المرمر وعن اليمين يوجد باب الضريح عليه إطار ذو حواش جصية رسمت عليها خطوط عربية [2] .

ضريح سيدي إبراهيم المصمودي المقترن اسمه بالجامع كان رجلا مشهورًا بالعلم والصلاح في حياته ، يوجد هذا الضريح خارج الباب الغربي من الجامع بالروضة

---

(1) مهتاري فايزة ، أضرحة الأولياء بمدينة تلمسان ، رسالة ماجستير ، ص: 63.

(2) الحاج محمد برمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:287 ـــ288.

المعروفة بروضة آل زيان . ندخل إليه بواسطة باب معقود بعقد حدوي بسيط يعلوه إطار للباب ، أما الباب الخشبي فبسيط أتت عليه عوامل الزمن فأصبح هشًا ، الصحن مربع الشكل تحيط به أروقة من الجوانب الأربعة ترتكز على أعمدة قصيرة بواسطة عقود حدوية وحسب ما يبدو أن هذه الأعمدة البسيطة الأسطوانية من المرمر جلبت من آثار المنصورة (1) . الضريح يحتوي على زخرفة للجدران من الجص ذات أشكال هندسية كثيرة رائعة ذات أسلوب فني جميل مع اتقان في الصنعة ورسم للخط الكوفي على مساحة ضيقة وصغيرة .

أما المدارس فمدرسة العباد هي آخر نموذج بقي قائمًا من جملة المدارس المشيدة بتلمسان . للمدرسة باب واحد معقود بعقد حدوي ، بداخلها صحن مستطيل في وسطه حوضان : أحدهما كبير يحيط به شباك من حديد حديث العهد وآخر صغير في وسطه نافورة ماء . على الجانبين الأيمن والأيسر من الصحن نجد رواقين محمول سقفهما على عشر سوار (2) . تحيط بالعقد الحدوي للباب مستطيل أول مزين بالفسيفساء وهذا المستطيل جعل وسط مستطيل لآخر أكبر منه مرونق بحواش من الفسيفساء أيضاً في جدار كل من الرواقين الأيسر والأيمن تفتح البيوت التي كانت معدة لسكن الطلبة كل رواق من كل بيت له باب مقوس على شكل حدوة الفرس تعلوه نافذة صغيرة لدخول الضوء كما يوجد داخل البيت كوة مقوسة يضع عليها الطالب المصباح الذي يستضيئ به وكتبه وكراريسه وجميع أدواته الصالحة للدراسة من محابر وأقلام وغير ذلك . قاعة الصلاة هي قاعة للدراسة عبارة عن بيت كبير مربع الشكل مسقف بقبة كبيرة من الخشب تظهر من

---

(1) W. et .G. Marcais - opcit – p :302.

(2) مهتاري فايزة ، نفس المرجع السابق ، ص:60.

الخارج بالسطح العادي المغطى بالقرميد الأخضر ، فتحت فيها ست نوافذ عالية لدخول الضوء ، ولهذه القاعدة محراب مفتوح في جدار القبلة ذو زخرفة جبسية بديعة مؤلفة من إفريز جبسي على شكل المضلع الثماني تحبط به خطوط عادية بسيطة وقناطر وصفحات مرونقة بالهيئات العربية (1). جاء وصف المدرسة في زهر البستان فقال مؤلفه :« أقيمت مدرسة مليحة البناء ، واسعة الفناء، بنيت بضروب من الصناعات ، ووضعت في أبدع المصنوعات ، سمكها بالأصبغة مرقوم ، وبساط أرضها بالزليج مرسوم ... غرس بإزائها بستانتين يكتنفانها ، ... صنع فيها صهريج مستطيل ، وعلى طرفيه من الرخام خصتان تطردان مسيلا ، فيالها من بنية ما أبهجها ...» (2) .

شيد السلطان أبو حمو موسى الثاني حسب الكتابات الأثرية الموجودة على العمودين المؤطرين لمدخل جامع سيدي إبراهيم زاوية ومدرسة و مسجد سنة 765 هـ /1363م ضمن مجمع معماري موحد داخل مجموعة من البساتين ولقبت المدرسة بالمدرسة اليعقوبية نسبة لوالده أبي يعقوب وقد كان هذا المبنى الأخير موجود بجانب مسجد سيدي إبراهيم الحالي ولم يبق من هذا المجمع سوى الضريح والمسجد(3) .

دون أن ننسى الحمامات في تلمسان التي قال فيها الرحالة العبيدري :« وبه حمامات نظيفة من أحسنها واوسعها وألطفها حمام العالية وهو مشهور وقلما يرى نظيره » . هذه الحمامات كلها اندثرت ولم يبق منها إلا حمام الصباغين

---

(1)محمد برمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:304 — 305

(2) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الثاني الزياني ، ص: 182.

(3) W. et. G. Marcais – Opcit ,p :301.

ومن شدة ما لحق به من تغيير أتلف مرافقه القديمة وبعض محاسنه ، يتألف من قاعة كبيرة مربعة الشكل في وسطها صحن مربع الشكل أيضًا وسطه حوض مائي جدرانه مغطاة بالزليج وفي وسطه نافورة تحيط بالصحن أربعة أروقة إثنان منهما مرتفعان عن الأرض بنحو شبرين معدان لنزع الثياب واستراحة المستحمين بعد الخروج . الرواق الرابع منه يكون الدخول إلى الحمام ، سقف الأروقة مؤلف من عقود تحيط بالصحن من جوانبه الأربعة سوار حجرية تحمل أقواسا على شكل حدوة الفرس ، مجموعها 16 قوسًا ثلاثة في كل جانب من الجوانب الأربعة تعلو الجميع قبة مثمنة الأضلاع في قمتها تخاريم لامعة (1) . أطلق عليه اسم حمام الصباغين لأنه كان بجوار سوق الصباغين في ذلك الحي ، بحيث لا زال بجواره دكان للصباغة وهو من أقدم الحمامات بمدينة تلمسان (2) .

ب ــ الزخرفة الفخارية والخزفية :

اهتدى الإنسان إلى الصناعة الفخارية لكون هذه المادة سهلة المنال وسهلة الصنع ولارتباطها بحاجاته اليومية ، وهي تعكس تطور الإنسان عبر الزمان . كما أنها لا تتطلب أدوات معقدة وكبيرة بل تعتمد على أشياء تقليدية وبسيطة . فمن فخار غليظ خال من الزخرفة إلى فخار مزوق ومنمق دقيق الصنعة يعبر عن رقي الإنسان ، وتمكن الفنان من الإبداع والابتكار في الأشكال والألوان والرسومات بعد أن أدخلت عليه أدوات حديثة ومتطورة ساهمت في تطويره مما أدى إلى ظهور الخزف والفرق الذي يمكن استخلاصه بين الخزف والفخار هو أن الفخار مصنوع

---

(1) الحاج محمد برمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 258.

(2) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 206.

من الطين فقط دون طلاء أو زخرفة متقنة وهو أقدم وجودًا من الخزف الذي يصنع أيضا من الطين لكنه يغطى بطبقة زجاجية أي بمادة من الزجاج الذائب[1] . كما يزين بعناصر نباتية وحيوانية أي انه في بعض الأحيان جانب الزخرف يطغى على الجانب الوظيفي للتحفة بمعنى أنه تصنع بعض التحف للتزيين فقط دون تأدية وظيفة ما . لكن الصناعة الفخارية مربوطة بالحاجة والضرورة ومن هنا كانت بسيطة في صناعتها وخالية من الزخرفة .

معظم الحفائر الأثرية التي أقيمت في بلاد المغرب كشفت عن أمثلة من المصنوعات الفخارية الخزفية مثل القدور ، وأواني الطبخ ، الجرار ، الأطباق التي كان يستعملها عامة الناس ولا زال يستعملونها . فأهل أقادير كانوا يستعملون الأواني المصنوعة في بلدهم فكانت مطلية ومزخرفة بالرسوم . فقد عثر الأستاذ بال في الجولة التي قام بها في ضواحي المدينة على أحد هذه المعاني ويظهر أنه أهمل في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد عثر على معمل آخر بباب القرمادين وكان يعمل فيه الفخارين في عصر الموحدين أي في نفس القرن [2] . يقول الأستاذ ألفريد بال أن الشقف الذي عثر عليه بأقادير يشبه الشقف الذي عثر عليه في مدينة الزهراء بالأندلس كما يدل على أن تلمسان كانت على صلة وطيدة بالأندلس وقد عثر كذلك على قالب للخزف بالقرب من صور قديم في نواحي باب العقبة بالقرب من عين القويدس وهو بالمتحف البلدي بتلمسان ، هذا القالب رسم على إحدى صفحتيه زخرفتان الأولى حيوانية والثانية نباتية وهذا ما يؤكد وجود معمل للخزف والفخار بأقادير[3]

---

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 100.

(2) G. Marcais – Opcit , p :96.

(3) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 34 ـــ35.

أما صناعة الخزف فقد تعددت أواني الطبخ والتحف إلى مجال العمران بحيث كانت تصنع قراميد ملونة لتزيين واجهات السقوف والشرفات وبلاطات خزفية مزخرفة وملونة بزخارف ذات عناصر نباتية وألوان بديعة ورائعة تزين بها إطارات الأبواب وأرضية القصور والمساجد والأضرحة وغيرها . لم يصلنا شيء كثير عن الصناعة الفخارية والخزفية بتلمسان في هذه الفترة الزمنية ، لكن هذا لا يعني أنها كانت منعدمة بل كانت صناعة قائمة بذاتها حتى أنه لا زال حي بتلمسان يسمى بحي الفخارين نسبة إلى هذه الصناعة كما توجد أسر بتلمسان تحمل هذا الاسم دلالة على الحرفة التي كانت تمتهنها[1] . بالإضافة إلى اكتشافات الأستاذ بال لمعامل الفخار والخزف التي كانت موجودة بتلمسان والتي اندثرت بمرور الزمن .

ج ـ الزخرفة الحجرية والرخامية :

تتمثل التحف المصنوعة من الحجر والرخام في الأحواض الكثيرة التي كانت تزدان بها القصور والمساجد وشواهد القبور والأضرحة بالإضافة إلى بعض الأعمدة الرخامية والمرمرية التي كانت تزين بها أروقة ومحارب المساجد ومساند للسقوف بالإضافة إلى البلاطات الرخامية التي اعتبرت بمثابة بساط أرضي تفرش به المساجد والقصور ، فمثلا بالجامع الكبير فناء واسع هذا الصحن مفروش بمربعات من الرخام وفي وسط أحد أحواضه نافورة من الرخام يجري فيها الماء كذلك توجد به مصطبات من الرخام يجلس عليها للوضوء كذلك محراب الجامع مفروش بالرخام الأسود [2] .

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:33.

(2) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، المرجع نفسه ، ص: 226.

أما سقف مسجد سيدي أبي الحسن محمول على صفين من الأعمدة المرمرية المكللة بتيجان مزخرفة وجميلة . كما يوجد بمسجد سيدي أبي مدين شعيب حوض من الرخام كذلك . قوس محراب هذا المسجد محمول على عمودين من المرمر الخالص مزخرفان بتاجين منقوش عليهما بخط أندلسي أنيق وبالقرب من الساريتين اللتين أمام المحراب توجد رخامتان منقوش على احداهما نص تاريخي ومحتوى هذا النص يشير إلى السلطان (*) الذي أمر بتشيير هذا المسجد والرخامة الثانية المتصلة بالسارية الثانية منقوش عليها نص تاريخي محتواه مقدار الأراضي الحبوس والممتلكات التي أوقفها الأمير أو السلطان لفائدة الجامع والمدرسة [1] .أما ضريح الشيخ فقد فرش فناءه بالرُخام ، وسقفه محمول على أربعة أعمدة من المرمر ذات تيجان لطيفة يقال أنه جيء بها من قصر النصر بالمنصور ، كما أن الضريح يحتوي على قبور لعلماء آخرين شواهدهم كلها من الرخام البئر الموجودة بالضريح مزينة بحزام دائري من المرمر [2] .

لا زال مسجد أبا الحسن أي المتحف حاليا يحتوي على بعض الآثار من الرخام ومن المرمر من جملتها أعمدة مرمرية وشواهد قبور منقوش عليها أسماء أصحابها من أمراء وعلماء وغيرهم وتيجان من الرخام ، بالإضافة إلى حوض كبير من المرمر جيء به من المنصورة والذراع الملكي المكونة من رخامة ذات خطوط عربية مثبتة في الجدار هذه الذراع كان يرجع إليها التجار كلما اختلفوا في

(*) السلطان : الأمير أبي عامر ابن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان . بحيث بنى هذا المسجد في سنة 696هـ من بعد وفاته ، انظر رشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق ، ص: 77.

(1) رشيد بورويبة ، المرجع نفسه ، ص: نفسها .

(2) مهتاوي فايزة ، نفس المرجع السابق ، ص: 65.

القياس وهي من إنشاء السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول [1] . معظم البناءات الرسمية بتلمسان احتوت على هذه المادة المزينة التي استعملها الأمراء والأغنياء لتزيين المساجد والقصور والأضرحة ولا زالت هذه المادة مستعملة إلى اليوم لكنها وقفا إلا على أهل المال أو المباني الرسمية للدولة وذلك لغلاء ثمنها .

د – الزخرفة الخشبية :

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب [2] . استعملت هذه المادة ولا زالت تستعمل بشكل واسع إلى يومنا هذا بحيث تفنن الصناع وأهل النجارة بصناعة وتحف فنية رائعة تعبيرا عن مستوى رقيهم الحضاري والفني وازدهارهم المعماري بحيث استعمل اللوح المصنوع من الأرز في دفات الأبواب المحفور إطارها بتخاريم صغيرة على شكل النجوم ويشاهد هذا في الأبواب المحيطة بصحن الجامع الكبير ، ومستعملا كذلك في سقف مسجد أبي الحسن ومدرسة العباد وجامع سيدي الحلوي مثلا في المسجد الجامع الكبير توجد أخشاب أثرية تزدان بزخارف محفورة و نشاهدها في المقصورة وفي بعض أجزاء السقف، قوام هذه الزخرفة عناصر نباتية تعطينا صورة واضحة بما كان عليه الفن في ذلك العصر ولا زال بحيث يرى على يمين المحراب منبر من الخشب عجيب الشكل من حيث الزخرفة وإحكام الصنعة ، وصنعته في عهد حديث مما يدل على أن أهل الصناعة بتلمسان لا زالوا يعملون عمل أسلافهم ويتقنونه [3].

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ص: 235.

(2) عبد الرحمن بن خلدون ،نفس المصدر السابق ، ص: 322.

(3) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، المرجع نفسه ، ص:219.

في وصف سقف جامع سيدي أبي مدين ومنبره يقول ابن مرزوق في مسنده الصحيح « ... سقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع وقد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة فلا يختلج في النفس شك ولا يعرف لها وهم أنها أشكال منجورة ومنقوشة ... اشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب ...» (1) .

أما سقف جامع سيدي الحلوي فهو من خشب الأرز مزخرف بنقوش باهرة وضعت على الكيفية الآتية لوحة منقوشة تكون إفريز مزخرفًا بخط كوفي لهذه النقوش الخشبية أسلوب قوي يقترب من أسلوب النحوت الجضية وتحت هذا الإفريز نشاهد ألواحًا أدخلت في الجدران المتوازية ومنقوش عليها نماذج بسيطة ركب السقف الخشبي أولا من جملة أقواس تجمعها خشبات مشكلة ثم غشي الكل بشبكات بارزة من قضبان الأرز المبسوطة المنقطعة بزوايا قائمة ثم زينت القضبان المستديرة الشكل ببعض الصفحات من الخشب داخلة في هذا التركيب العجيب (2) .

إن مسجد أبي الحسن كان مزخرفا على هذا النمط قبل أن يصاب بالحريق الذي ذهب بمعظم أجزائه يؤكد المؤرخون وعلماء الآثار أن صناعة وزخرفة الخشب كانت مزدهرة وراقية رغم أن ما وصل إلينا منها قليل جدّا وأنه ما اتلف وحرق واندثر أكثر بكثير ، وذلك بفعل عوامل بشرية وطبيعية ، وخاصة في مجال التحف المنقولة التي يسهل حملها . هذا الرقي ساهم فيه النجارون الأندلسيون الذين هاجروا إلى بلاد المغرب كما يقول مارسيه (3) يعود الفضل الى جملة من

---

(1) عبد الحميد حاجيات ، نفس المرجع السابق ، ص:64.

(2) W. et .G, Marcais , opcit , p : 296 –297.

(3) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 158.

الكتب والمصادر القيمة لمؤرخين وعلماء أجلاء سجلوا فيها وصف هذه المآثر سواء كان الوصف مختصرا أو مطولا إلا أنه يعطينا فكرة عن مدى رقي الزخرفة الخشبية .

هـ ـ الزخرفة المعدنية :

ما وصل إلينا من هذه التحف يعتبر قليلا جدًا بالنسبة لبقية التحف الأخرى ومعظمها كانت تزين المساجد والقصور من ثريا ومباخر وأبواب مصفحة بالنحاس بالإضافة إلى بعض الأواني المنزلية ، دون أن ننسى العملة النقدية أو السكة المضروبة سواء ذهبية أو فضية ، ومن بين هذه التحف الموجودة بتلمسان ثريا الجامع الكبير المعلقة في القبة وتتوسط الرواق الأوسط من الجامع وهي من صنع حديث ، وهناك الثريا القديمة الموجودة بمتحف تلمسان والتي يرجع تاريخها إلى عهد السلطان يغمراسن بن زيان وقد صنعت الثريا المعلقة بالجامع اليوم على غرارها [1]. كذلك باب جامع سيدي أبي مدين المؤدي إلى الضريح يصفه لنا ابن مرزوق بقوله :« أما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي ننزل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه وإلى الشارع وهو باب من النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة فهو غريب ما يتحدث به »[2] . بالإضافة إلى بعض الآلات الصغيرة الموجودة في المتحف بالمدينة ومسامير فنية عتيقة جدًا . بالإضافة إلى ضروب من السكة والنقود الذهبية والفضية القديمة منها ما هو مستدير ومنها ماهو مربع الشكل ، منها ما هو مضروب في تلمسان ومنها ما هو مضروب في بقاع وأقاليم أخرى كل هذه الأشياء موجودة بالمتحف البلدي بمدينة تلمسان .

---

(1) الحاج محمد بن رمضان شاشوش ، نفس المرجع السابق ، ص: 235

(2) عبد الحميد حاجيات ، نفس المرجع السابق ، ص: 64.

في مجال الاختراع فقد كان أبو تاشفين مولعا به فقد حلّى وزين أحد قصوره بشجرة أبدعت يد الهندسة في صنعها : « وكانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة وأعلاها صقر ، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور ، صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها ، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها »[1] .

فاختراع المنجانة [*] هذه برهان قاطع على تقدم الصناعة المعدنية ، حركات الطيور وحركات الخادم والأصوات الآلية للدلالة على مهارة وتفوق صانعيها " علي بن الفحام التلمساني " [2] . مما يدل على وجود هذه الصناعة بتلمسان هو وجود حي نسب إلى مهنة الحدادة ويسمى جامع الحدادين المكان الذي كان هؤلاء الحدادون أو الحرفيون يزاولون فيه مهنتهم ولق زالت هذه المهنة بتقدم الصناعة وتهدم الحي والجامع الذي نسب إلى هؤلاء الحرفيين ، كما زالت جملة من الحرف الأخرى التي عرفت في تلمسان .

و ــ الزخرفة النسيجية :

« زخرفة المنسوجات والطنافس صناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه . فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن اسداءًا في الطول وإلحامًا في العرض وإحكاما لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للإشتمال . ومنها الثياب من القطن

---

(1) محمد عبد الله التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص:141.

(*) المنجانة : ساعة عجيبة ذات تماثيل متحركة كانت بالمشور . كما تخيلها ، د. مرتين ، أنظر حاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، شكل 83 ، ص:241.

(2) محمد بن ععمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 205.

والكتان للباس ، الصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد...» [1] . صناعة النسيج حرفة امتهنها أهل تلمسان منذ أقدم العصور وعرفت تطورا بتطور الحضارات ونموها ، وخاصة في عهد بني زيان مكانها لا زال معروفًا ومعلومًا إلى يومنا هذا يعرف باسم سوق الغزل وبهذا السوق يوجد دور الحياكة المعروفين باسم الدرازين وقد نشطت صناعة الحياكة نشاطا كبيراً في الماضي ولا زالت في الوقت الحاضر وتعتبر من الصناعات أو الحرف القليلة التي استمر نشاطها إلى يومنا هذا . كان الدرازون والنساجون في القدم ينسجون الكساء والحياك والأغطية الجيدة المعروفة باسم بوربحان والحنابل وغيرها من الملابس الصوفية وكانت بضائعهما رائجة في الشرق والغرب والجنوب [2] .

إن تلمسان تتميز بصنع نوع من البرنس يجعلون الشعر من الداخل في فصل الشتاء أو من الخارج في فصل الصيف أو عند سقوط المطر لأن المطر يسقط فوق الثوب دون أن ينفذ الماء فيه وإذا ما سقط المطر طويلاً على الثوب فليس عليك إلا أن تنفضه فتجده جافا كأنما لم ينزل عليه ماء [3] . إضافة إلى نسيج الزرابي الرفيعة التي كانت تنسج إما من الصوف ذات الألوان الطبيعية أو الصوف المصبوغة بألوان متنوعة تحمل زخارف هندسية ونباتية جميلة لا تحول ولا تتغير ولو بقيت سنين عديدة . للإشارة أن صناعة النسيج لم تكن من خصائص الرجال فقط فالنساء كن يشاركن فيها فكانت لهن يد ماهرة في صنع الأثوبة الصوفية والخمائل والتطريز على الحرير والقطيفة وحتى الجلد بأسلاك من الذهب

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص: 324.

(2) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرج السابق ، ص: 330.

(3) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 221.

والفضة وذلك في بيوتهن [1] .

ـ عمل أمراء بني زيان على تأمين البوادي والسبل والطرقات ليمارس التجار تجارتهم باطمئنان فكانت معامل الصوف والأحصرة كثيرة في القرى والمداشر [2] . مما لا شك فيه أن تلمسان عرفت رقيا وتطورًا في صناعة النسيج بصفة عامة والتطريز والحياكة بصفة خاصة وهي الشهرة التي مازالت تتصف بها في هذا المجال إلى يومنا هذا . بحيث أن قفطانات وفرمالات تلمسان الباهرة والجميلة ذات الأثمان الغالية والباهضة لا زالت مطلوبة وسلع رائجة وزينة متميزة ترتدينها النساء الحسناوات للتباهي والتزيين بالإضافة إلى الحياكة فإن حايك العشعاشي كان ولا زال الملف والحجاب التقليدي المعبر عن زي أهل المنطقة وأهل تلمسان قائمًا ومطلوبًا إلى يومنا هذا وإن دل هذا على شيء وإنما يدل على صنعته المتقنة وقيمته الرفيعة ، فقد بلغت صناعة النسيج بتلمسان مبلغًا من الدقة والصنعة المتينة وهذا على مر العصور القديمة.

ز ـ زخرفة الكتاب :

المقصود بفن زخرفة الكتاب وكل ما اتصل بالكتاب من حيث إخراجه إلى الوجود دون النظر إلى المضمون أو الموضوع الذي يدور حوله ، وهي تناول المادة التي كان يكتب عليها قبل اختراع الورق ، الشكل العام للكتاب ، الخط الذي كتب به أو الذي استعمل لكتابة النص ، الصور التي استخدمت في توضيح هذه النصوص كلما يتصل بفن التجليد . « وكانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط ... وجاءت صناعة

---

(1)و(2) محمد بن عمر الطمار، نفس المرجع السابق ، ص:204.

الوراقين المعينين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكُتَيْبِيَة والدواوين[1] »

قليل ما نجد شيء كتب عن فن التجليد وزخرفة الكتاب في مدينة تلمسان فقد تناول هذا الموضوع مارسيه و بوانو على بلاد المغرب عامة والقيروان في تونس خاصة . إلا أن هذا لا ينفي وجود هذه الصنعة في تلمسان والدليل على ذلك أن معظم أمراء بنو زيان كانوا مشجعين للعلم والعلماء ، ووجود المكتبة الكبيرة للجامع الأعظم واهتمام الأمراء بالكتاب واعتنائهم بفروع الكتاب من نسخ وتجليد وخط وحرف وغير ذلك ، ومثال على ذلك الأمير أبو زيان محمد بن أبي حمو كما ورد في تاريخ ملوك بني زيان للتنسي :« ... نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخًا من القرآن وحبسها ، ونسخة من صحيح البخاري ، ونسخًا من " شفاء " لأبي الفضل عياض حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة ... »[2] .

---

(1) محمد بن عبد الله التنسي ، نفس المصدر السابق ، ص: 211.

(2) عبد الرحمن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص: 334.

الفصل الرابع

1 ـ ملامح تأثير الفن الزخرفي العربي الأسلامي

على نظيره الأندلسي

2 ـ ملامح تأثير الفن الزخرفي الأندلسي

على نظيره الزياني والمريني بتلمسان

3 ـ خلاصة التأثيرات في باقي الفنون

4ـ الفن المدجن

1 ـ ملامح تأثير الفن الزخرفي العربي على نظيره الأندلسي:

إذا تأملنا صيرورة حضارات الإنسانية لا حظنا أن أي حضارة كانت إلا وقامت على أنقاض حضارة سابقة لها ، فإذا لم يكن كذلك فهناك امتزاج بين حضارتين كما هو الشأن بالنسبة للحضارة الاسلامية الأندلسية هي امتزاج بين الحضارة العربية الإسلامية والفارسية والبيزنطية والقوطية . في ميدان البناء كان التحرر من قيود كلاسيكية الصارمة أقل عسرًا ، والأندلس تثبت ذلك بالدليل القاطع فإن المشرق سيترك طابعه على الإنشاءات الزخرفية في آثار اسبانيا الإسلامية ومن ثم على آثار المغرب في العصور الوسطى [1] .

ما حمله الفاتحين من نمط عيش وعمران وعادات وتقاليد وحرف وصناعات وفن وموسيقى كان له أثر بليغ في نفوس حياة أهل الأندلس الأصليين . هذا ما يشير إليه السيد جورج مارسيه في مقال له على أن الأثر الثابت الذي يتركه الشرق على أيام الخلفاء لم يكن فقط في قطاع الأبنية وزخرفتها بل شمل كذلك الفنون الصناعة والحرف والمهن فخزف مدينة الزهراء الذي ما يزال بكمياته المذهلة ينتظر من يظهره للناس يؤكد فن صناعته ومزج ألوانه وزخرفته ، كما لو أنه من اصل ما بين النهرين ، أما صناديق العاج التي تعتبر مفخرة المعامل التابعة للخلافة ، فإنها تقتبس مواضيعها من رسوم كمناظر صيد ، ومجالس اللهو والموسيقى من قاعة الفن الأموي التقليدية [2] مع ما وجده هؤلاء الفاتحين من نعيم وبساتين خضراء ونمط عيش وعمران وفن لهؤلاء كان له الوقع الكبير في

---

(1) ليفي بروفنسال، نفس المرجع السابق ، ص: 66.

(2) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص: 67.

نفوس الفاتحين مما أنتج حضارة جديدة والتي تعرف بالحضارة الإسلامية الأندلسية والتي كانت امتزاجا وانصهارًا لأنماط عديدة وكثيرة بعناصر بشرية وعرقية مختلفة بحيث دام هذا الامتزاج قرابة ثمانية قرون أعطى أساليب معمارية وفنية جديدة وأنماط معيشية وحرفية وصناعية راقية .

- إذا كان الفن الإسلامي بمجموعه يتميز بأنه فن يجمع بين الفن العربي الأصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الإسلام أو ضمه الحكم العربي ، فإن هذه الميزة تظهر في المغرب والأندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري ، وأول من أدخل الفن الإسلامي إلى افريقيا هم الأغالبة حيث وضعوا أسس الفن الجديد في القيروان حين شيدوا مسجد عقبة ابن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة . ثم بدأ الإقتباس في مدينة فاس لما جاء المرابطون والموحدون ومن بعدهم بنو زيان بتلمسان وبنو مرين بالمغرب الأقصى والحفصيون بتونس ، زادوا في إغناء الفن المغربي الأندلسي وتمييزه بالنقش على الخشب والجبس والأدهان البديعة والشمسيات الملونة والنحاس المموه والمرمر المفصص وترصيع المنارات بالزليج[1] . حتى القرن الخامس الهجري كان الطراز المغربي الإسلامي سائدًا في الأندلس ثم فيما بعد يأتي عهد المرابطين والموحدين ويبدأ الطراز اللأندلسي المغربي بالظهور وبلوغ أوج ازدهاره في القرن التاسع الهجري . أبرز خصائص الفن الأندلسي هي وجود الشرفة المسننة من الخشب فوق الأبواب الكبرى واستعمال العقد المتطاولة المليئة بالمقرنصات وأما المآذن فهي مربعة الشكل واستعمال الجص المحفور واللون الذهبي في التزيين [2]

---

(1) أنور الرفاعي، نفس المرجع السابق ، ص: 19–20.

(2) أنور الرفاعي ،المرجع نفسه ، ص: 59 –60.

أما فيما يخص مظاهر الحياة الأخرى عدى جانب العمران والفن الزخرفي فإنه يعود الفضل الكبير إلى زرياب (*) وهو من ألمع الشخصيات التاريخية في مجال الفنون السمعية بالإضافة إلى فنون أخرى كالأزياء والملبس فقد عمل على تطوير المجتمع الأندلسي فكان أول من خص الشتاء بثياب الصوف والصيف بثياب القطن وكان الناس من قبله يتخذون ثيابهم من الصوف في الشتاء والصيف على حد سواء ، وكانت له آراء في اختيار ألوان الثياب وله ابتكارات في هيآتها، كما كانت له توجيهات في ترتيب المسكن وتنسيق أثاثه ، كما عرف الأندلسيون كيف ينبغي أن تكون عليه مائدة الطعام ، كما جعلهم يستبدلون كؤوسهم المصنوعة من الطين والخشب والخزف أو المصنوعة من الذهب والفضة بكؤوس جميلة مصنوعة من الزجاج المزخرف بأجمل النقوس ، وأكثر من ذلك فلقد أحدث في الموسيقى العربية ثورة أقامها على أسس متينة من الدراسة ويكفي أن نذكر أنه أضاف وترا خامسًا إلى أوتار العود الأربعة(1) .

(*) زرياب : هو ابو الحسن بن نافع ولد سنة 173 هـ في العراق ولقب زريابًا بسبب وجهه النحاسي الغامق . وإذا صدقنا ترجمته فإن هذا الاسم كان يعني طيرًا أسود الريش . اشتهر زرياب في سن مبكرة تلميذ لإسحاق الموصل المغني والموسيقي ذائع الصيت في بلاط بغداد ، عرفته موهبته حدًا من الشهرة بحيث أن الخليفة هارون طلب من أستاذ زرياب احضاره معه ليظهر قدراته أمامه ففاق الموسيقار الفتى كل حد في حضرة الخليفة مما أثار حسد اسحاق الموصلي إلى درجة اضطرته من شدة ما خشي منه على حياته إذا أقام في بغداد لأن يهاجر بعيدًا طلبًا للثروة في الغرب ، وبعدما مكث مدة قصيرة في القيروان بالمغرب وأخذ طريقه إلى الأندلس وكان خبر براعته قد سبقه فدعى الخليفة بالأندلس زريابا أن يضع حدًا لتردده وأن يعزم على الاستقرار في اسبانيا بقية حياته . سرعان ما فرض نفسه على المجتمع القرطبي سواء بموهبته الموسيقية أو بثروته المادية . فمكث في قرطبة حتى وافته المنية عام 857م .، انظر ليفي برفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 54 ـــ55.

(1) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 24 ـــ25.

فقد تعدت ملامح التأثير جانب العمران والفن ونمط المعيشة إلى حدود أبعد من ذلك وهي الأفكار والدين والثقافة والاقتصاد فبعد القرن الخامس الهجري اتخذت الأندلس طابعها الخاص بها والمميز لها في جميع ميادين الحياة بعدما كانت عنصرا متأثرا أصبحت عنصرا مؤثرًا ، مصدرة لأنماط العمران والفنون بأشكالها وأنماط المعيشة من مهن وحرف وصنائع ، وقد شمل تأثر الأقاليم الأخرى كتلمسان مثلا جميع ميادين الحياة سواء أكان هذا التأثر مباشر أو غير مباشر وأقصد بحكم الصلة الوثيقة التي كانت تربط الأندلس بتلمسان والتبادلات المختلفة في شتى المجالات وغير المباشر نربطه بالهجرات الأندلسية إلى هذه الأقاليم وذلك في أواخر الدولة الإسلامية بالأندلس .

2 – ملامح تأثير الفن الزخرفي الأندلسي في نظيره الزياني والمريني بتلمسان :

بدأت تفيد التأثيرات على المغرب منذ تأثر المرابطون لرقة الحياة الأندلسية وانغمسوا في الترف الذي اتسمت به الأندلس [1] . منذ القرن الخامس الهجري أخذ التيار الحضاري الإسباني المغربي يتسرب إلى الجزائر ولا سيما تلمسان حيث تربع المرابطون ثم الموحدون الذين تبنوا أساليب الفن الأندلسي الجميل ولم تلبث هذه الأساليب أن امتزجت بما كان في البلاد واستمرت عملية الامتزاج نحو ثلاثة قرون اتخذ بعدها هذا الفن الجديد إطاره النهائي وذلك في عهد بني زيان حيث أصبحت صلة تلمسان بالأندلس أقوى وأمتن من ذي قبل ، فإن هؤلاء بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤوا مقاما عاليًا في تاريخ الفن الزخرفي المعماري الإسلامي ، وقام بنو مرين ينافسونهم بتلمسان في هذا المضمار . وهذه المجموعة الفنية الزيانية المرينية ضاهت ما شيد بفاس وغرناطة روعة وإبداعًا [2] .

أول ما يجب ملاحظته في الطراز المغربي هو الإسراف في زخرفة العمائر ولم يظهر هذا الإسراف في عصر الموحدين ظهورًا تاما وإنما كان واضحًا كل الوضوح في عمائر القرن الثامن الهجري ، وهي العمائر التي تعرف باسم طراز الحمراء ، والمعروف أن الفنانين كانوا يستقدمون من غرناطة إلى سائر المدن الأندلسية والمغربية فنقلوا إليها الأساليب الفنية التي عرفوها في قصر الحمراء، والعنصر الأول في هذا الطراز هو تغطية المساحات الفنية بالزخارف التي بلغت في الغنى والدقة والتنويع حدًا يستحق الإعجاب [3] .

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ص : 50.

(2) زكي محمد حسن، نفس المرجع السابق ، ص: 121.

(3) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص: 268.

وجود أثار كثيرة في بلاد المغرب والأندلس تعكس جدرانها ألوانًا من الزخرفة الجدارية المحفورة في الجص وفي الرخام وفي الحجر لم نعهدها من قبل لأنها نتاج امتزاج تقاليد المغرب وتقاليد الأندلس ، وأبرز ما يلفت النظر في زخرفة الجدران عند المرابطين أنهم افرطوا في زخرفة المحارب وأضفوا عليها من الجمال فزينوها بزخارف حفرت في الجص وقد عرفت هذه الطريقة في بلاد المغرب باسم " نقش حديثة " [1]. الأمر الذي يدل على أن النقش على الجص كان يؤدى بآلة من حديد ، كما أنهم استعملوا أيضا طريقة أخرى في زخرفة الجص كانت مألوفة في العراق وهي استعمال القوالب مرسوم عليها زخارف يضغط بها على الجس وهو لا زال لينًا وهذه الطريقة تجعل زخرفة المساحات الواسعة ميسورة وفي أسرع وقت وأقل نفقة . ومن أجمل أمثلة الزخارف الجصية في المغرب ما نراه في مدينة تلمسان في مسجدها الجامع الكبير ، إذ نشاهد زخارف رائعة ولعل أ روعها ما نراه في قبة أمام المحراب والتي تتخللها العقود التي نحصر منها أروع ما تشاهده العين من زخارف نباتية محفورة في الجص بعضها مخرم نلمس الضوء من خلال ثقوبه [2] . هذه القبة الأولى التي شيدت بالمغرب وهي شبيهة إلى حد بعيد بتلك التي تزين مسجد جامع قرطبة [3] . بحيث تتمثل هذه التأثيرات المعمارية القرطبية بوجه خاص في محراب مسجد الجامع بتلمسان الذي يشبه محراب جامع قرطبة شبهًا كبيرًا فاللوحتان الرخاميتان اللتان تكسوان واجهة المحراب بقرطبة قلدتا تقليدًا واضحًا بالنسبة لمحراب جامع

---

(1) G. Marcais .opcit , p :134

(2) محمد عبد العزيز مرزوق ، نفس المرجع السابق ، ص: 85 _ 86.

(3) Rachid Bouruiba . l'art religieu musulman en algerie ,p :119

تلمسان كما قلدت أيضا طراز الكتابة في محراب جامع تلمسان التي تملأ أطر محراب قرطبة [1]

ولعل أهم مثال قائم يمكن أن نلمس فيه جوانب التأثير المتعددة في ميدان الزخرفة المعمارية الجامع الكبير بتلمسان والذي يعتبر بحق نموذجا على النحو المتبع في بناء مسجد قرطبة وزخارفه . قبة أمام المحراب هي آية من الفن الأندلسي المغربي ، فهي من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة ، يقوم من قاعدة القبة اثنى عشرة عقدًا تتقاطع فيما بينها تاركة قبيبة مقرنصة ، والفراغات الناشئة من تقاطع العقود تزدان بتوريقات مفرغة في الجص وتتخللها شمسيات صغيرة [2] . وقبة أمام محراب الجامع الكبير مستلهمة في شكلها وزخرفتها من قبة المسجد الجامع بقرطبة [3] .

الطابع الأندلسي يظهر جليًا كذلك في المحراب فإنه كبير الشبه بمحراب جامع قرطبة في شكله وقوسه وفي النقوش التي تعلو هذا القوس وسقفه الذي هو على صورة محارة مقسمة إلى فصوص زخرفية وسقف المسجد خشبي كسقف مسجد ندرومة الذي أمر ببناءه يوسف بن تاشفين والمساجد التي بنيت في المغرب الأقصى في ذلك العهد . والفرق بيّن بين هذه المساجد ومسجد تلمسان ، فقد أدخلت تحسينات جديّة في عهد علي بن يوسف حيث طغت أساليب الفن المعماري وغزت المغرب ، وكانت الأندلس وقتئذ تحت نفوذ الدولة المرابطية [4] .

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ص: 59 .

(2) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق . ص:45.

(3) Rachid Bouruiba . Opcit , p :120.

(4) محمد بن عمرو الطمار ، المرجع نفسه ،ص : نفسها .

لقد طلب أبو حمو الأول (808هـ ـــ817هـ) وابنه أبو تاشفين (817 ـــ838هـ) من السلطان أبي الوليد اسماعيل سلطان غرناطة (813هـ 852هـ) أن يبعث عددا من صناع الأندلس وفنانيها لبناء القصور بحاضرة تلمسان [1] .

ـ واجهة جامع سيدي أبي مدين شعيب بتلمسان تعتبر أصدق تعبير عن عمق تأثير العمارة الأندلسية في أبنية الجزائر في عهد السلطان أبي الحسن المريني علي بن عثمان ، إذ أن زخارف التوريقات والزخارف الهندسية التي تكسوا الجدران جميعًا موزعة في تقسيمات رائعة مماثلة في زخارف قصر الحمراء بغرناطة كما يعد مسجد سيدي أبي الحسن صورة مماثلة لمسجد قصر الحمراء[2]

زخرفة مدرسة العباد شبيهة بزخرفة الجامع المشيد قبلها بثمانية أعوام فنماذج الرسومات والأشكال الهندسية شبيهة بالرسومات الزهرية الكائنة على مصراعي الباب الجوفي من الجامع ولكن تأثير الأبنية الأندلسية واضح من حيث المبالغة في إبراز التماثيل واستعمال الرسوم النباتية أو القاشاني والمزهر الذي ينوب عن أشكال المحاور النخيلية الموضوعة بعضها فوق بعض والموجودة في الزخارف التلمسانية . أما زخرفة القاشاني فإنها تحتوي على القرنفل المصحوب بغصنه الظاهر العروق وكذا المراوح النخيلية الموشاة بأغصانها في مسجد سيدي أبي الحسن وتحت القبة يجري افريز من الخشب نقشت عليه خطوط أندلسية تتضمن قصيدة في مدح مشيد هذه المدرسة وذكر تاريخ تشييدها [3] .

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ص: 60.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص:61

(3) الحاج محمد بن رمضان شاوش ، نفس المرجع السابق ، ص:305 ـــ307.

وجه التأثير واضح إذا تأملنا زخرفة عمائر تلمسان قبل تسرب الفن الزخرفي الأندلسي لقد استمد البناة طريقتهم من حضارتهم القديمة ، كما استمدوها من حضارة الأندلس التي تشترك في كثير من الخصائص مع حضارتهم وقد هاجر الأندلسيون أنفسهم إلى الجزائر وجلبوا معهم صناعة البناء فكان تأثيرهم عظيمًا ولا سيما في القلاع والقصور[1] .

لم تكن زخرفتهم بالدقة والبراعة التي ساهم بها الأندلسيون الذين كان لهم الباع الطويل في الترقية والنهوض بهذا الفن داخل تلمسان . اتصال تلمسان المباشر بالأندلس كذلك المهاجرين الذين تأزم بهم الوضع في الأندلس فنزح عدد كبير منهم إلى بلاد المغرب وتلمسان خاصة التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس من قبل . حملوا معهم علومهم ، آدابهم ، فنونهم عاداتهم ، تقاليدهم ، وحتى أزياءهم وبذلك تمت عملية الامتزاج والتزاوج بين أسلوبين أحدهما راق بلغ درجة البراعة والتفوق والثاني محلي اتسم بالبساطة ، حصيلة هذا الامتزاج أعطت طابعًا جديدًا مميزا فرضت به تلمسان نفسها في ميدان العمران والحضارة والتمدن .

---

(1) أبو القاسم القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص:461

3 ـ أهم الجوانب المتأثرة و خلاصة التأثيرات في باقي الفنون.

مسّت الزخرفة الأندلسية جميع الميادين البناء والعمران الخشب والمعادن والمنسوجات وغيرها ، وكان التأثير بالغا وواضحا بحيث شمل معظم جوانب الحياة . تحتل زخرفة العمران المقدمة من حيث التأثير في نمط البناء وزخرفة الجدران وقباب المساجد والمقصورات والبلاطات والأروقة والأعمدة والسواري والعقود وكذلك الزخرفة الخشبية شملت الأبواب الكبرى للمساجد وسقوفها ومنابرها بجميع نقوشها مستلهمة ذلك من نظيرتها الأندلسية ، كذلك بالنسبة للمعادن والمنسوجات .

البناء والعمران هو الواجهة الأولى التي تظهر فيها معالم الزخرفة واضحة لذا نأخذ باستعراض أمثلة جانب التأثير فيها أقوى وأبرز من غيره وأحسن مثال الجامع الكبير بتلمسان ، فمعظم زخارفه مستمدة من الطراز الزخرفي الأندلسي . إن التشابه بين قبة أمام المحراب بجامع قرطبة ومثيلتها بالجامع الكبير بتلمسان تكاد تكون تمامًا . دون أن ننسى المحراب الذي يعتبر كثير الشبه بنظيره بجامع قرطبة كذلك الجدران المغطاة بالزخارف الهندسية بجامع سيدي أبى مدين وسقفه المزين بأشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة منقوشة بدقة رائعة منبره العجيب المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس ، بالإضافة إلى قصر دار الفتح الذي اقامه أبو الحسن فساحاته وغرفه وبركته تذكرنا بقصر الحمراء [1] .

إن قصور زخرفة القباب بكل من الجامع الكبير بتلمسان وجامع القرويين بفاس وغيرها من جوامع الموحدين مستمدة ومأخوذة من نمط زخرفة قباب

---

(1) محمد بن عمرو الطمار ، نفس المرجع السابق ، ص:133.

الجامع الكبير بقرطبة [1] ، واغلب الظن أن التأثير في الجامع الكبير بتلمسان كان نتيجة مكوث علي بن تاشفين مدة ليست بقصيرة في الأندلس لما كان واليًا عليها ولا بد أنه اصطحب معه عددًا من الفنانين الأندلسيين وقام بإنشاء الجامع . أما مآذن جوامع تلمسان المربعة الشكل ذات الزخرفة الجميلة شبيهة إلى حد بعيد بنمط بناء مآذن جوامع الأندلس مثل جامع قرطبة وجامع غرناطة وغيرها .

إن المساجد والقصور والمدارس التي تحلت بها تلمسان لشاهد قوي على رقي الحضارة المغروسة في تلمسان ، وقد تدل على أن الاتجاه في التعمير كان تابعًا للتقاليد المغربية الأندلسية [2] .

أما صيغ الكتابة المستعملة في تلمسان فجلها شبيهة بنظيراتها بالأندلس وخاصة من ناحية الخط وبعض العبارات(شكل رقم 8). فمثلا الكتابة المنحوتة على الجبس تقع على الأوجه الأربعة من قبة محراب الجامع الكبير بتلمسان ، حروفها كتبت بأسلوب أندلسي أنيق لا يتخللها أي تزويق [3] . هناك كتابات أخرى كالبسملة وآيات قرآنية بالإضافة إلى بعض العبارات والكلمات والتي وجدت في تحف منقولة ككلمة " بركة " التي كتبت في أحد المسارج التي عثر عليها في منطقة غرناطة [4] وهذه الكلمة توجد بمسجد سيدي إبراهيم المصمودي منقوشة بأحد أقواس قبة المسجد في إحدى الزوايا مزينة بكلمة بركة [5] .

---

(1) Rachid Bouruiba – Opcit – p :137.

)(2) محمد بن عمرو الطمار، نفس المرجع السابق ، ص: 259.

(3) رشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق ، ص:65 ،

(4) محمد عبد العزيز مرزوق، نفس المرجع السابق ، ص: 186.

(5) Rachid Bouruiba – Ibid – p: 193

معظم العبارات المستعملة في التزيين والنقش سواء في البناء أو التحف المعدنية أو الخشبية تقريبًا هي نفسها بتلمسان ذلك لأن أسلوب الخط المشترك هو خط مغربي اندلسي كذلك عبارة الفخامة والتيمن والإجلال متشابهة ، استعملت في الأندلس كما استعملت في المغرب وخاصة تلمسان.

أما فيما يخص جوانب الزخرفة على الخشب فكان التأثير بارزا في سقوف المساجد وأبوابها الكبرى ومناظرها الجميلة المستوحاة من نظيرتها بالأندلس . أما الزخرفة النسيجية فقد تأثر أهل تلمسان إلى حد بعيد بالأزياء التي كان يرتديها أهل الأندلس ، كما عرفوا اللباس الصيفي واللباس الشتوي . ونمط زخرف النسيج محلي يحمل طابع المنطقة بشيء من التأثير مثل الزرابي . هناك جوانب أخرى تتجلى فيها معالم التأثير من فن الطبخ والطهي وفن الموسيقى الذي يعتبر موضوعا بذاته يقتضي الدراسة بالإضافة إلى فنون البستنة وتزيين الحدائق والحقول والأشجار المثمرة والفواكه .

أما العوامل التي ساهمت في نجاح هذا التزاوج والامتزاج هي الصلة الوثيقة التي كانت بين تلمسان والأندلس ، البعثات أو التبادل الثقافي والتجاري الذي كان قائما بين البلدين وأخيرًا عامل الهجرات قبل وبعد سقوط الأندلس ، وأهم عامل ساهم في نقل بذور حضارة الأندلس إلى بقية أقطار المغرب ومنها تلمسان بدرجة أكبر وأوفر.

إن مجال تأثير الأندلس لم يقتصر على ميدان الفنون والفنون الزخرفية فقط بل شمل جوانب الحياة اليومية لأهل تلمسان فجعلتهم يمتازون بالأناقة في الهندام والذوق في الملبس وبالصيانة في العرض والسيرة والكياسة في الحديث والمعاشرة ، والحذاقة في كيفية الطبخ وألوان الأطعمة والحلويات وتأثيث المنازل والاعتناء بالبساتين ، ومن أهم الفنون التي غاصوا فيها وتجذرت في أعماقهم فن

الموسيقى الأندلسية كونهم من أكبر هوات الموسيقى الأندلسية فاستحوذت على أهواء وأذواق أهل تلمسان بحيث شاعت بين الطبقات الشعبية أغاني قرطبية واشبيلية . وقد حافظوا على جانب كبير من هذا التراث الموسيقي الغرناطي حتى صارت كلمة غرناطة مرادفة لكلمة موسيقى كما عرفو ا كيف يتوارثونه ويسلمونه للأجيال المتعاقبة .

4 ـ الفن المدجن:

تاريخ الفن الإسلامي بالأندلس لم ينتهي بانتهاء الدولة الإسلامية بالأندلس حتى قبل وبعد انتهاء الخلافة الإسلامية ظل هذا الفن قائما أكثر من قرن فيما بعد تحت اسم الفن المدجن ، وينسب إلى المسلمين الإسبان الذين ظلوا وبقوا في شبه الجزيرة أو الأرض المسيحية يمارسون مهنهم وحرفهم وفنونهم التي استقوها من الحضارة الإسلامية بالأندلس والتي تجدرت بعمق في شبه الجزيرة الإيبيرية (1).

تمكنت التقاليد الفنية القرطبية التي تأصلت زمن الخلافة الأموية أن تنتشر في العالم الإسلامي إلى المغرب ومصر والشام وفي الغرب المسيحي فتصل إلى اسبانيا المسيحية وجنوبي فرنسا . وبذلك راح العنصر الأندلسي يؤثر في المجالات الفنية بإسبانيا المتحررة من النفوذ السياسي للإسلام تحت اسم التدجين ، اما انتقال التأثيرات القرطبية إلى جنوبي فرنسا فقد تحقق بطريقتين: أحدهما اشتراك الفرنجة في حروب الاسترداد المسيحي الإسباني ضد المسلمين في الأندلس ، ورؤيتهم لآثار الإسبانية ذات الطابع الخلافي سواء كانت مستعربة أم مدجنة ومحاولتهم تقليدها في بلادهم بعد ذلك. أما الطريق الثاني الذي نفذت منه التأثيرات الخلافية إلى فرنسا أو عن طريق الحج إلى شانت ياقب فأقاموا على طول الطريق الفرنسية المؤدية إلى شانت ياقب أديرة كلونية منازل للحجاج ، وكان من آثار ذلك أن أقام الرهبان الفرنسيون حجاج شانت ياقب كنائس لهم بفرنسا طعموها ببعض عناصر من الفن الإسلامي الذي شاهدوه متداخلا في الكنائس المستعربة (2).

---

(1)G. Marais- opcit – p ;168

(2) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ، ص: 36 ـ37 ـ38.

لقد درس السيد قوميز مورينو تلك الكنائس التي أقامها النصارى خاضعون لحكم عرب المغرب في قشتالة وليون وغالسيا دراسة مستفيضة في عصري الإمارة والخلافة الأمويتين في الأندلس فوجد أنها تتميز بصورة دائمة بالعقود والقباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة الحصان (الفرس) (1) .

وندرج مثالا أثرا إسلاميا قرطبيًا في برج الكاتدرائية نوتردام دي بوردي كليرمو الذي يزدان بفتحات عقودها متعددة الفصوص على غرار عقود صومعة جامع قرطبة ، نشاهد هذه العقود المفصصة أيضًا في دير كلوني ببرجوني كما نراها في برج كنيسة لاشاريتيي سيرالوار ، وتشبه العقود في هذين الأثرين عقود المحار بكنيسة سانتا مريا لابلانكا بطليطلة وهو إحدى روائع الفن المدجن (2) .

أفضل جميع الوثائق التاريخية التي نملكها تبرز الإشعاع الحضاري الحقيقي الذي سلطته اسبانيا العربية على اسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة ، لم يفعل ملوك قشتالة شيئًا وكذلك ملوك أرغونا دون شك ليردوه عن بلادهم الخاصة بل شجعوا هذا الإشعاع (3) .

أول فن مدجن ظهر في قشتالة في الكنائس التي انشئت بعد عام 1085 م أي سنة بعد سقوط طليطلة مثل كنيسة سان رومان بعقودها الحدوية وزخرفتها العربية الملونة وكنيسة سانتا ماريا لالبلانش في طليطلة 1200م ، وكينسة سان فرناندو التي بناها ألفونسو الحكيم (1252 –1286 م) في المسجد الأموي

---

(1) ليفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 97.

(2) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ... ج2 ، ص:48 – 49.

(3) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص: 95 –96.

الكبير في قرطبة ، وجعل المعماريون مقرنصاتها وزخارفها النباتية شبيهة بفن غرناطة الإسلامي وكذلك القصر في اشبيليا يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الإسلامي من قبل الملوك المسيحيين (1) . هذه المدينة القديمة التي بها كنائس كثيرة متأثرة بالزخرفة الإسلامية كما ذكرنا ، معظم بناياتها ذات طابع اسلامي روماني وبعض الأحيان يغلب الطابع الإسلامي على نظيره الرماني بعناصره المحلية ويظهر ذلك في كل من ليون وأراغون (2) .

لم يكن طابع الفن المدجن مقصورا على العمران فقط بل تعداه إلى مجالات أخرى مثل الأقمشة التي دخلت أسماءها العربية إلى الإسبانية في العصور الوسطى كذلك مفردات زينة الرأس واللباس والأحذية والمجوهرات . طابع التأثير العربي وأولية قرطبة أو اشبيليا فيما يتعلق بالموضة أو فن الأزياء مثل هذا كان شأن السجاد ، والصناديق والأقداح وقد كانت تشكل في ذلك الوقت سواء في اسبانيا المسيحيةأم اسبانيا المسلمة عماد الأثاث في البيوتات الأرستقراطية والطبقات الميسرة . وليس ما يمنع هنا من الظن أن هؤلاء الأسرى قد عملوا في المدن التي سيقوا إليها قبل أن يذوبوا في جمهور السكان ، على نشر المعرفة حولهم في بعض الفنون والأساليب التي لم يكن قد خطرت ببال أسيادهم بعد(3) .

بالفعل لقد ساهمت الحضارة الأندلسية في كسر قيد الجمود والركود والخمول الذي كانت تعيشه أوروبا في تلك العصور فإن تداخل الإسلام والمسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية هو تداخل حقيقي مستمر في اسبانيا في العصور الوسيطة سواء في داخل الحدود الإسلامية أم خارجها .

---

(1) أنور الرفاعي ، نفس المرجع السابق ، ص:61.

(2) G. Marcais – Opcit ,p :169.

(3) ليفي بروفنسال ، نفس المرجع السابق ، ص: 92 ــ93.

خاتمة

عرف الفن الزخرفي في تاريخ الحضارة الإسلامية بالأندلس أقصى درجة التطور والرقي والإتقان والدقة في جميع الميادين . ذلك بفضل أنامل قناني ذلك العصر المهرة والبارعين سواء في عملية النقل والتقليد من حضارات أخرى أو ابتكار أساليب جديدة بهرت الأنظار وشدت الأذهان إليها كان هذا نتيجة تشجيع الأمراء والقائمين على شؤون الدولة الذين كانوا مولعين بالبناء والتشييد ، والذين استقدموا عمال وفنانون من مختلف الأقطار للاستفادة من مهاراتهم وتقنياتهم .

الفترة الأندلسية في مسار الحضارة الإسلامية حافلة بالمآثر والمعالم الزخرفية ، لا زال نصيب وافر منها قائم يشهد لهذا العصر ولأصحابه بمدى تفوقهم وبراعتهم في تشييد تلك الإنجازات التي أدخلتهم سجل التاريخ من بابه الواسع . لم تقف هذه الأساليب الفنية الزخرفية في حدود الدولة الإسلامية في الأندلس فحسب بل غزت وتسربت إلى مجتمعات أخرى مجاورة في الغرب وأخرى في الشرق وأوروبا ، إن شدة تأثر هذه الأمم بهذه الأساليب جعلتهم يقتبسونها ويكيفونها وأنماط بناءاتهم وتقاليدهم .

تلمسان أحد الدويلات التي تأثرت بهذا الأسلوب الفني الزخرفي إلى درجة فاقت كل التصورات . إن بصمات الزخرف الأندلسي على عمائر تلمسان من مساجد أو قصور كذلك الصناعات التقليدية الأخرى لا تخلوا من عناصر الزخرف الأندلسية . وهذا التأثر لم يأت صدفة إنما نتيجة عوامل ذكرنا معظمها في الموضوع . الأعجب من هذا كله هو أنه حتى اليوم لا زالت

تشيد مباني خاصة أو عمومية على طراز أندلسي سواء في نمط البناء أو أسلوب الزخرفي هنا بتلمسان.

ما أردنا الإشارة إليه هو بصمات الزخرف المحلي كادت أن تندثر إذ لم نقل اندثرت ، وذلك بامتزاجها بالزخارف الأندلسية وأصبح لا يميز ما هو أندلسي وما هو محلي وهذا خاصة في العمران ، أما بقية الصناعات التقليدية الأخرى فلا زالت تحافظ على شيء مما هو محلي مثل النسيج أو المعادن والحلي وغيرها . كل من العمران والصناعات التقليدية ساهمت في رخاء وازدهار المدينة وسكانها التي استمدت جمالها من تلك الأساليب الفنية الزخرفية الممتزجة والمتزاوجة .

البحث في التراث الفني المحلي لمناطقنا وخاصة تلمسان غني وواسع ، يستوجب منا الوقوف عليه والتعريف به للأجيال المتعاقبة ، وهو منهج من مناهج اثبات الهوية الحضرية والشخصية العربية الإسلامية ، والنهوض بتراثنا الحضاري وإزالة الغبار عليه لوقايته من الاندثار وذلك بتسجيله وتدوينه ، حتى يكون لنا بمثابة القاعدة الصحيحة والصلبة للانطلاقة في مسار التحضر ونتمكن من مواجهة هذه التفتح اللامحدود لهذا العصر دون عقدة ولا نقض ومواجهة تحديات النظام العالمي الجديد بما لنا وما علينا فيه .

ملحق الخرائط واللوحات و الأشكال

ملحق الخرائط

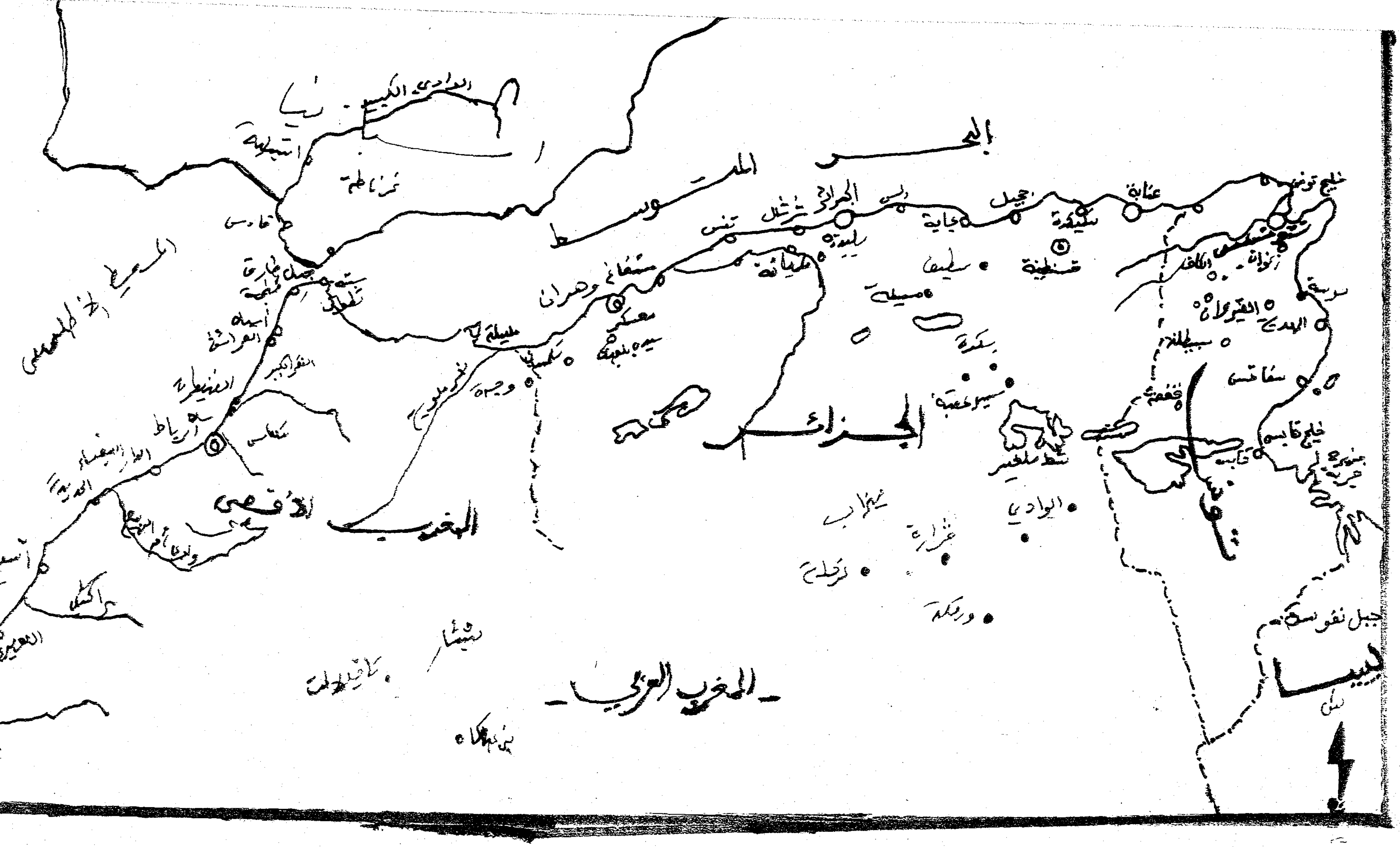

(خريطة رقم: 1)

خريطة المغرب العربي الكبير – احمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والاندلسي – ص: 573 .

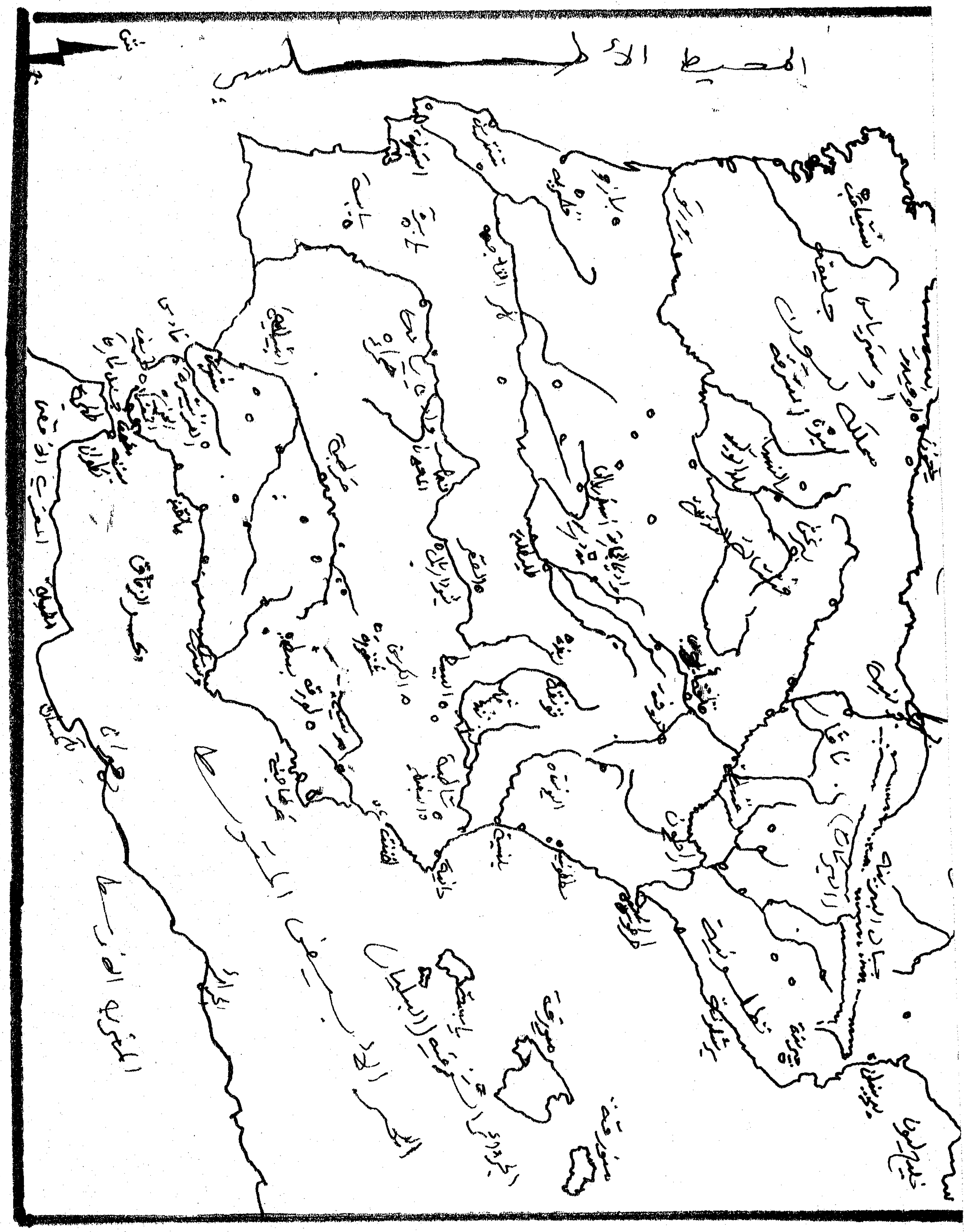

خريطة رقم: 2) ـ اسبانيا المسلمـــــة (الاندلس) ـ أحمـد مختار العبادي ـ في التاريخ العباسي والاندلسي ،

ص : 578.

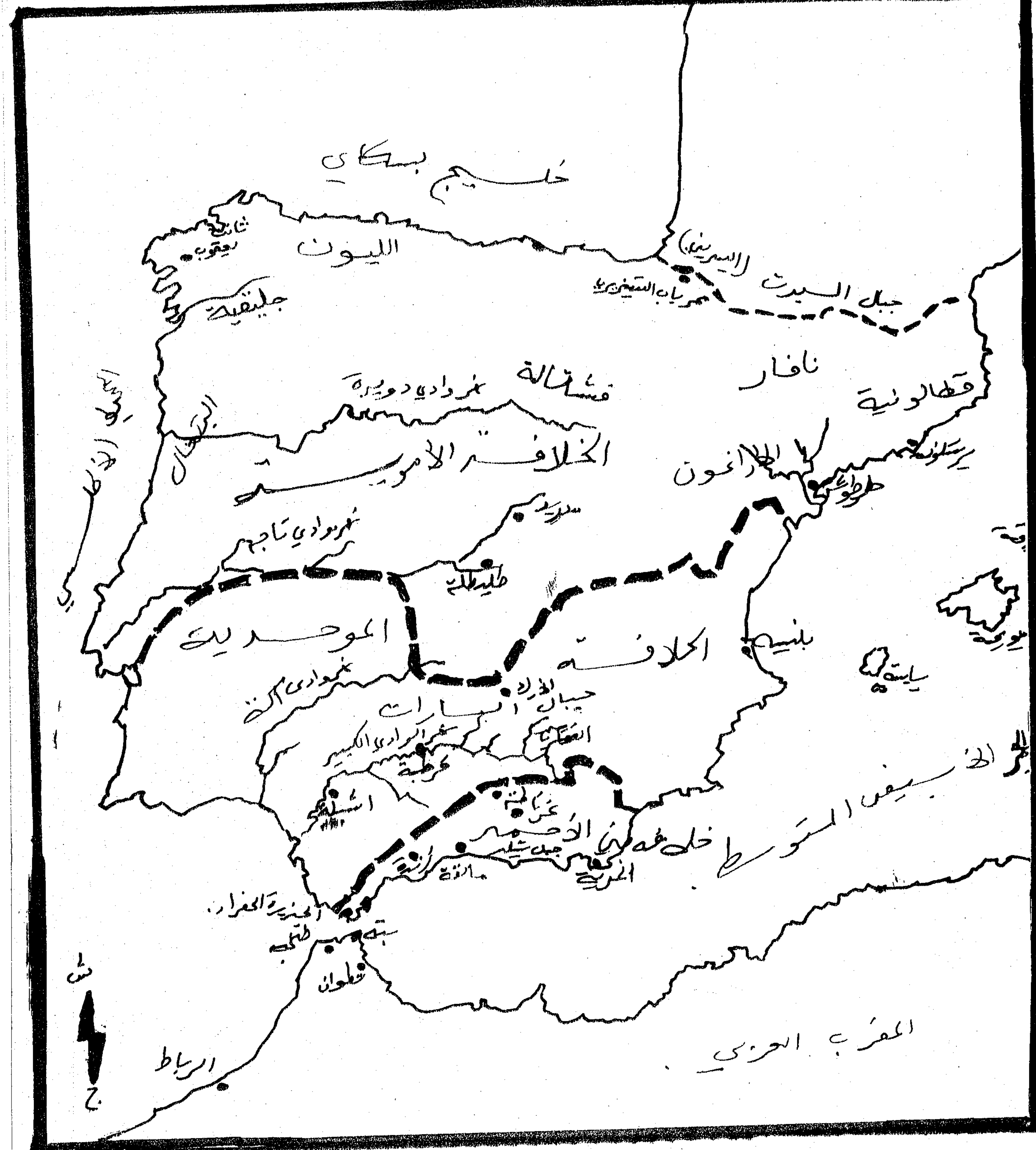

(خريطة رقم 3) بلاد الاندلس مقسمة الى امارات اسلامية ـ عبد العزيز الدولاتي مسجد قرطبة قصر الحمراء

ص : 13

ملحق اللوحات

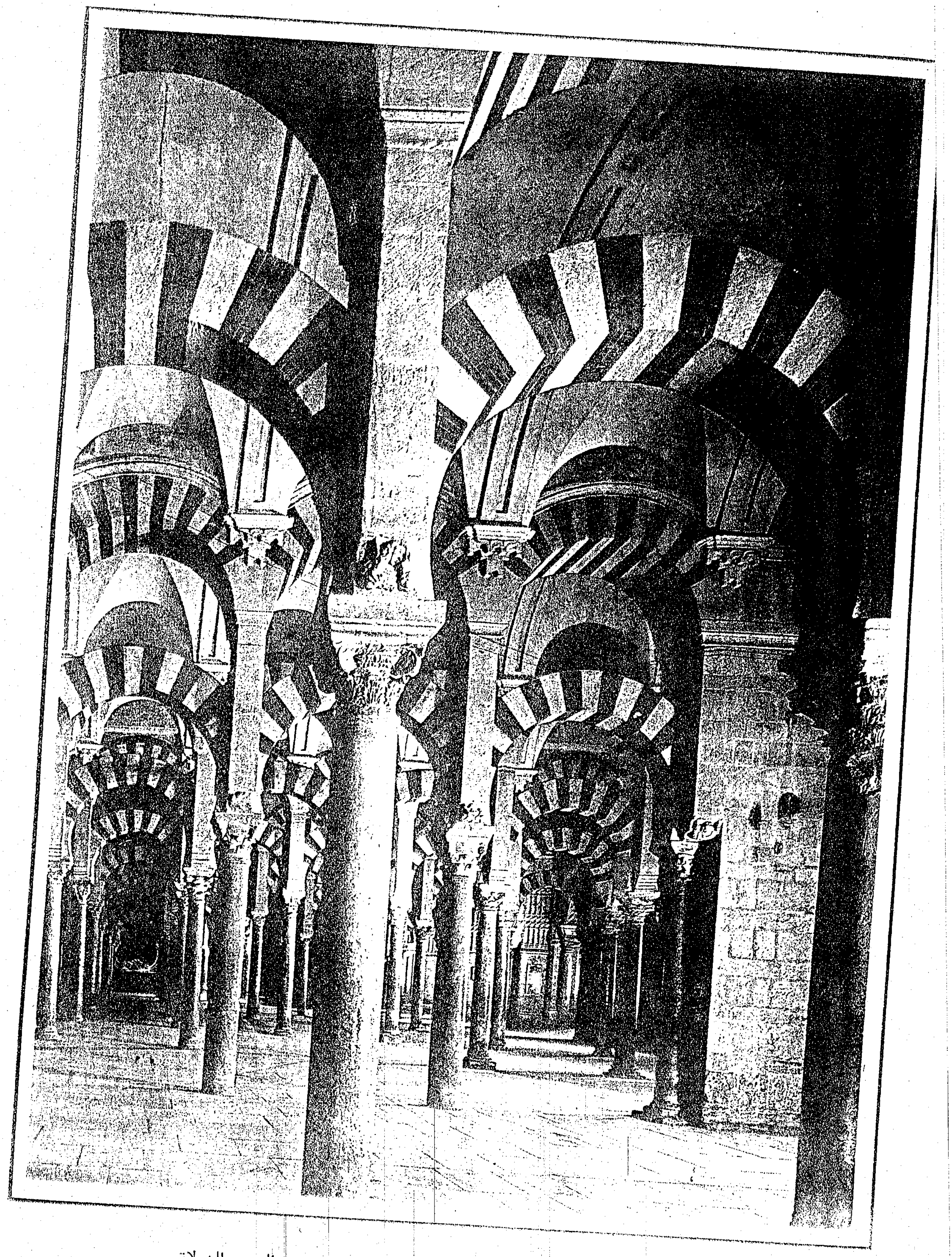

(لوحة رقم : 1) الاعمدة بقواسها كغابة النخيل الكثيفة وعقود متراكبة . عبد العزيز الدولاتي – قصر الحمراء ومسجد قرطبة – ص: 54

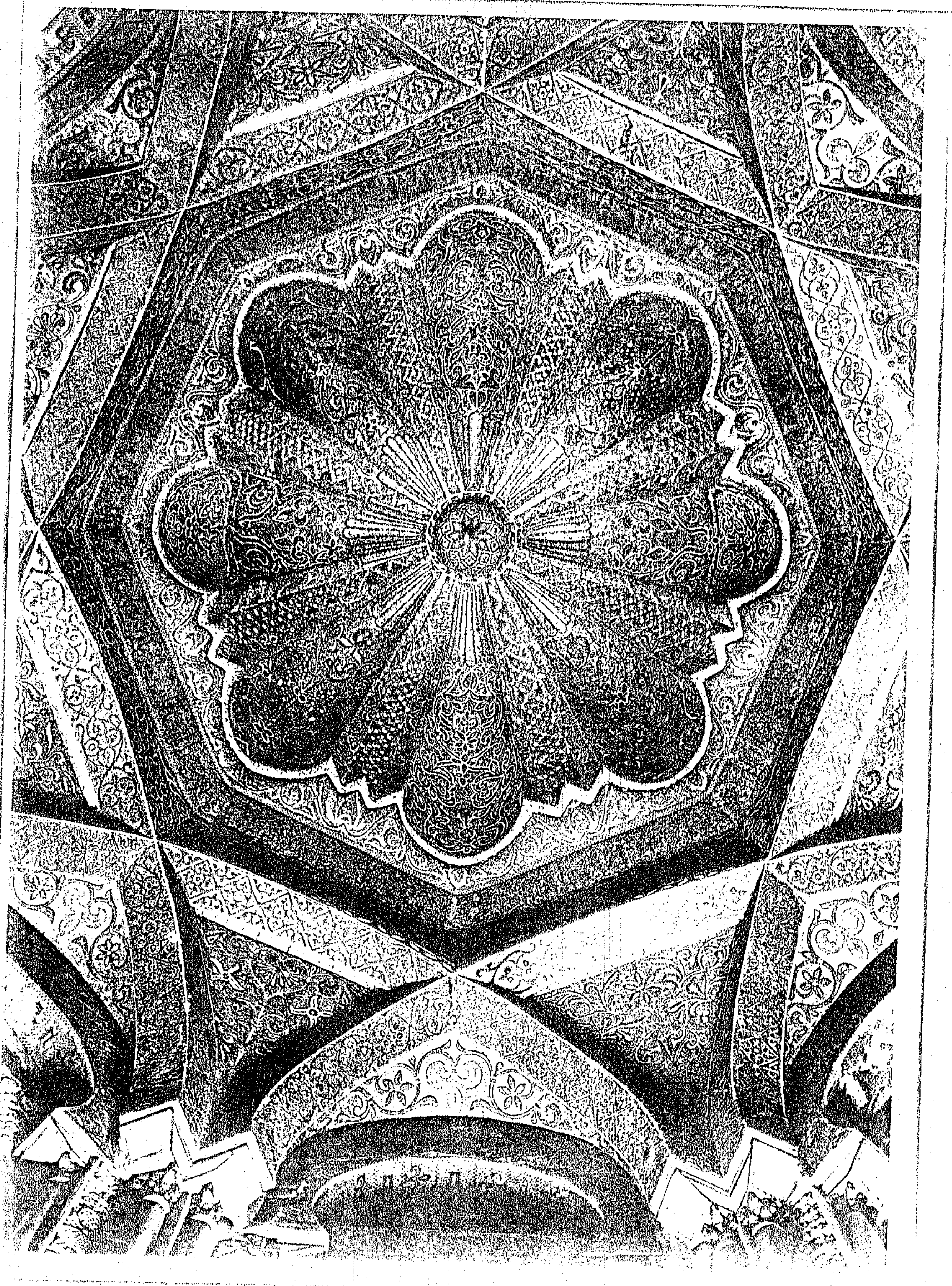

(لوحة رقم : 2) قبة المحراب الرئيسية بجامع قرطبة مكسوة بالفسيفساء البيزنطية على هيئة نجمة مثمنة الزوايا ــ عبد العزيز الدولاتي ــ نفس المرجع السابق ، ص: 70

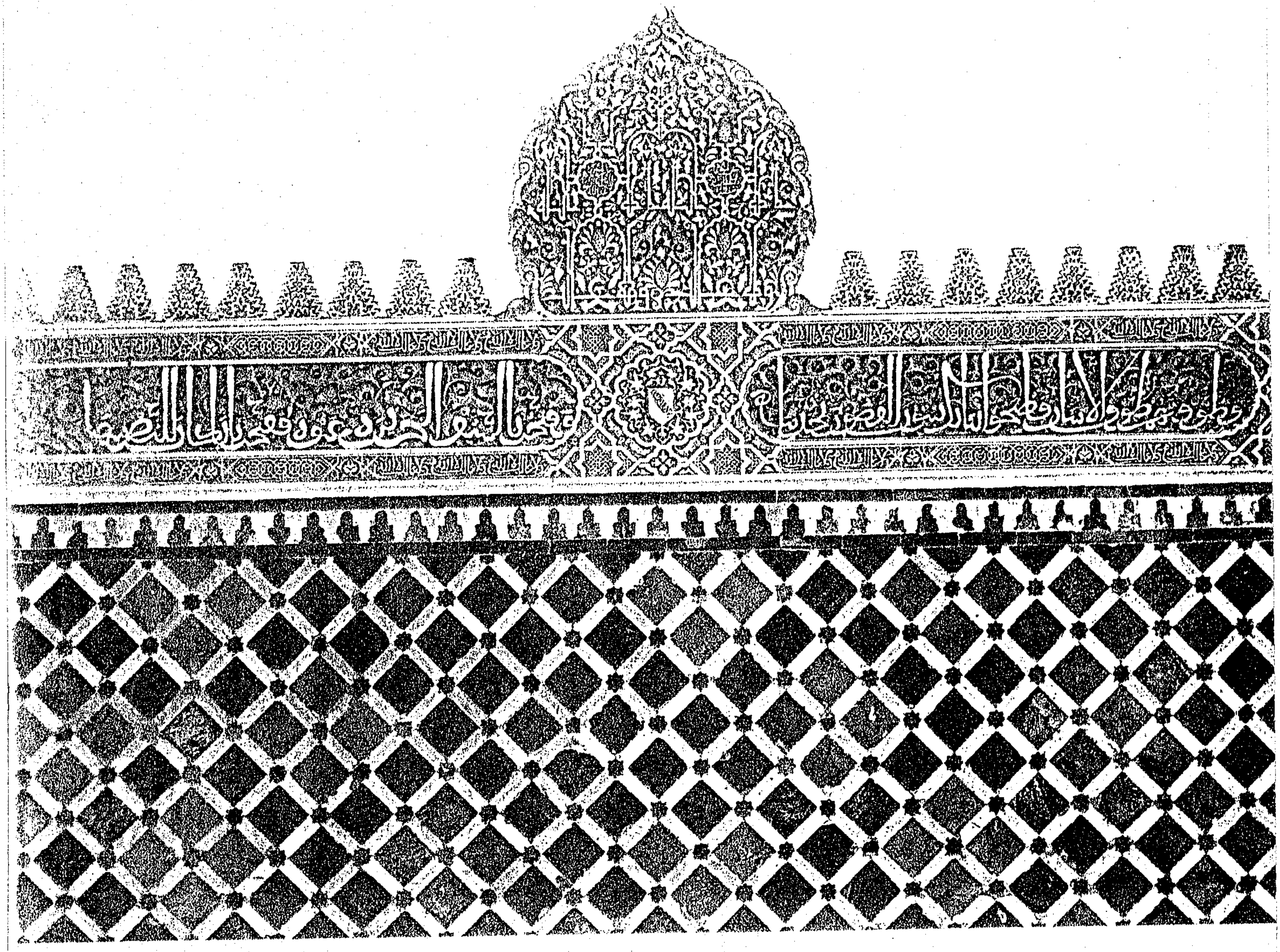

(لوحة رقم: 3) زخارف جصية في جدران قصر الحمراء مع فسيفساء خزفية ـ عبد العزيز الدولاتي ـ
نفس المرجع السابق ، ص: 134.

(لوحة رقم: 4) واجهة المحراب جامع قرطبة ـ عبد العزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق ، ص: 68

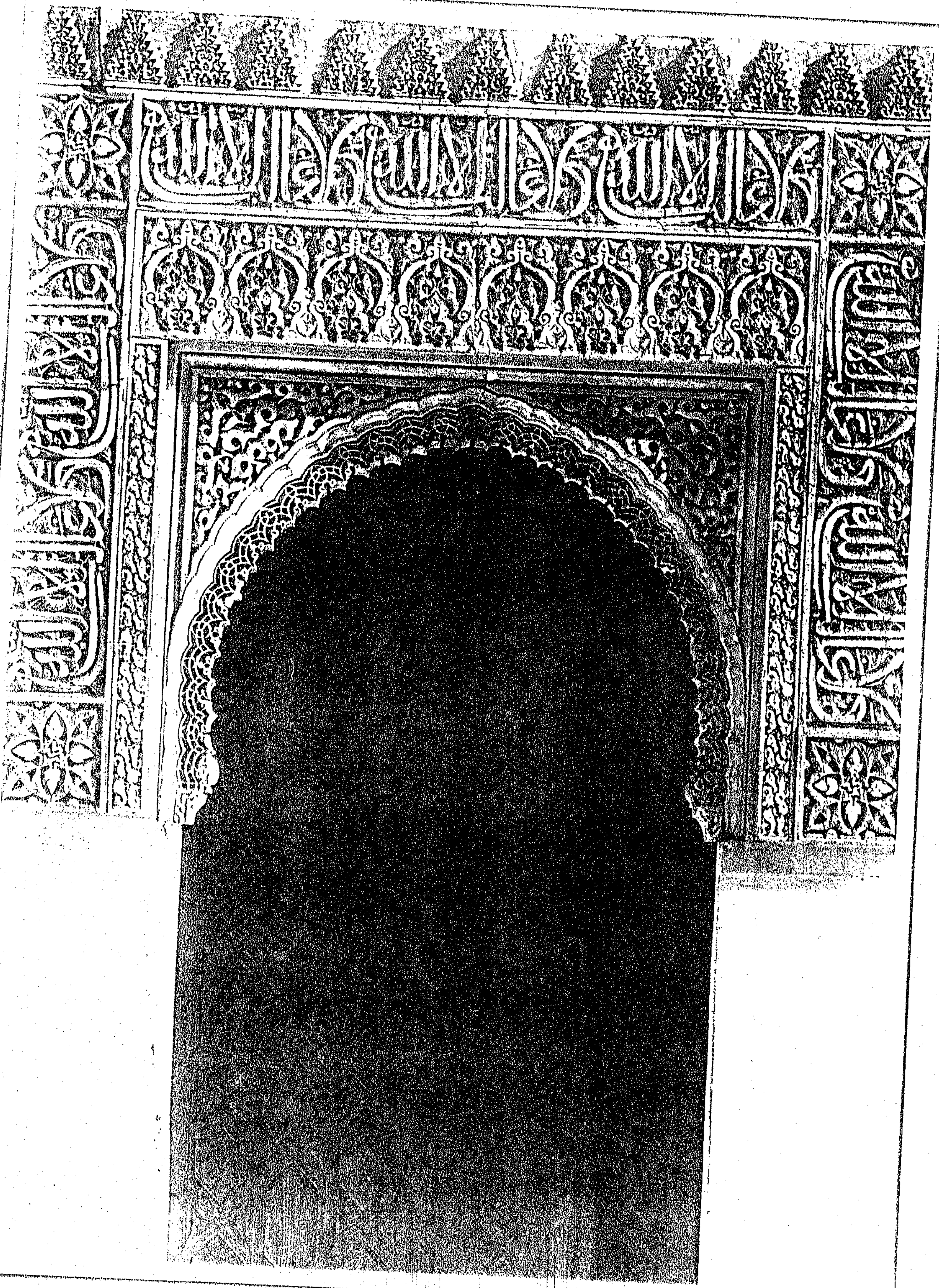

(لوحة رقم. 5) نموذج للابواب التي تحمل زخارف نباتية واطاره الجصي به كتابات عربية

ـ عبدالعزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق ص 177 .

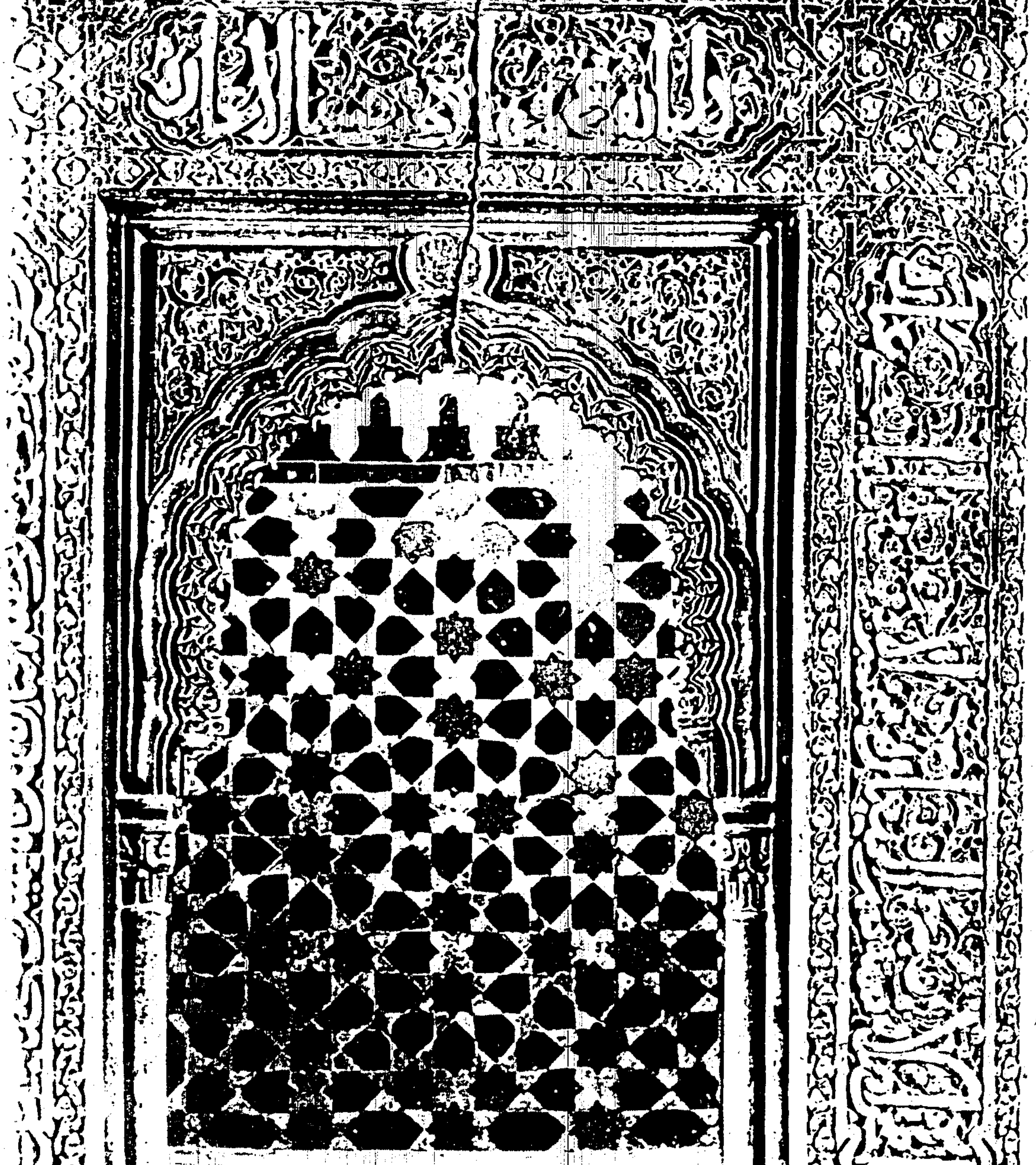

(لوحة رقم:6) قاعة البركة بها زخارف جصية وكتابات على هيئة عناصر نباتية

ـ عبدالعزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق ، ص: ١٤٥

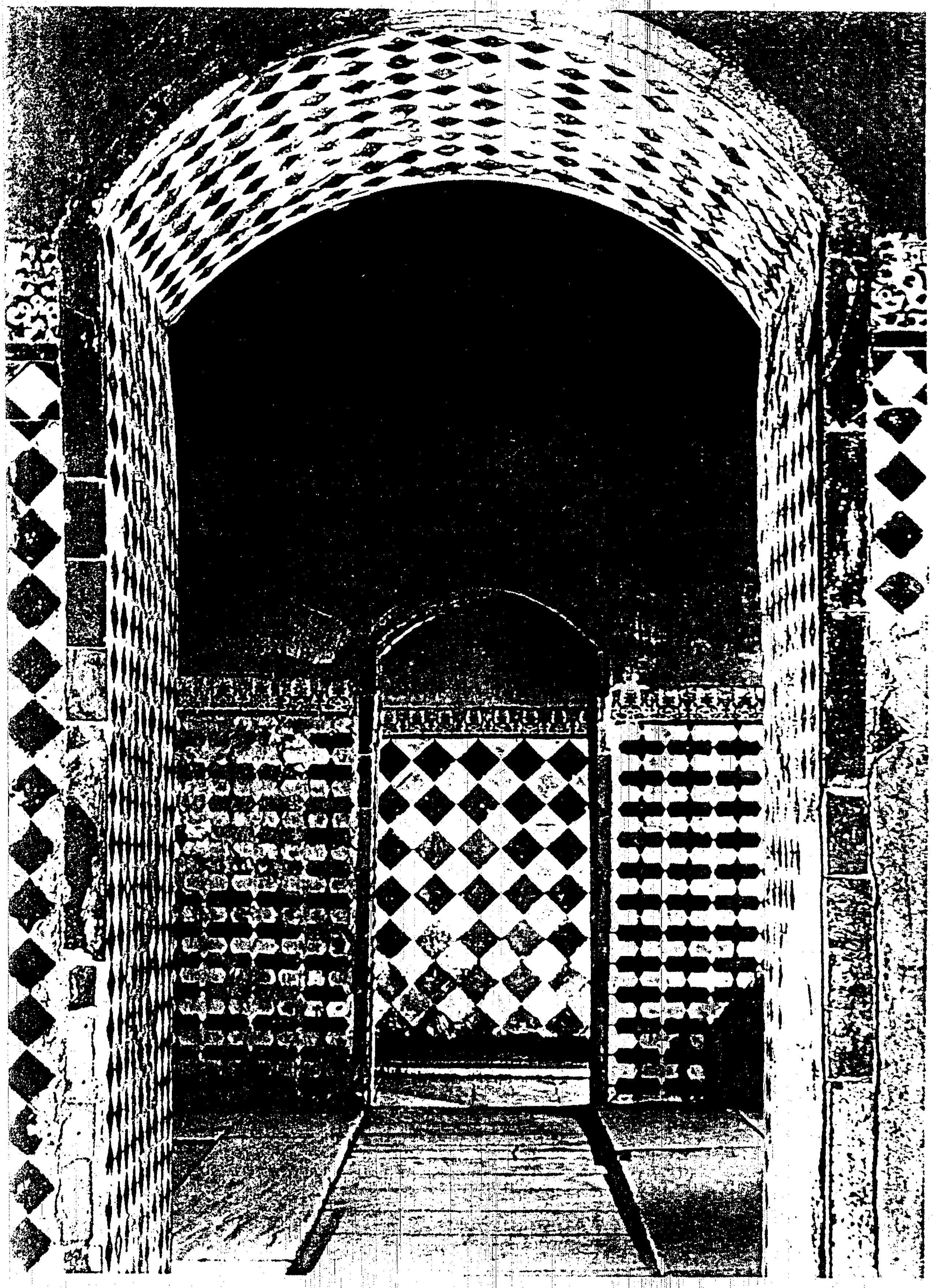

(لوحة رقم : 7) مدخل قاعة الحمام مزخرفة بالقراميد الخزفية - عبد العزيز الدولاتي ،

نفس المرجع السابق ، ص : 159

(لوحة رقم: 8) الزخارف الجصية المحفورة في اطار المحراب
وقبة امام المحراب بالجامع الكبير بتلمسان – رشيد بورويبة
نفس المرجع السابق .

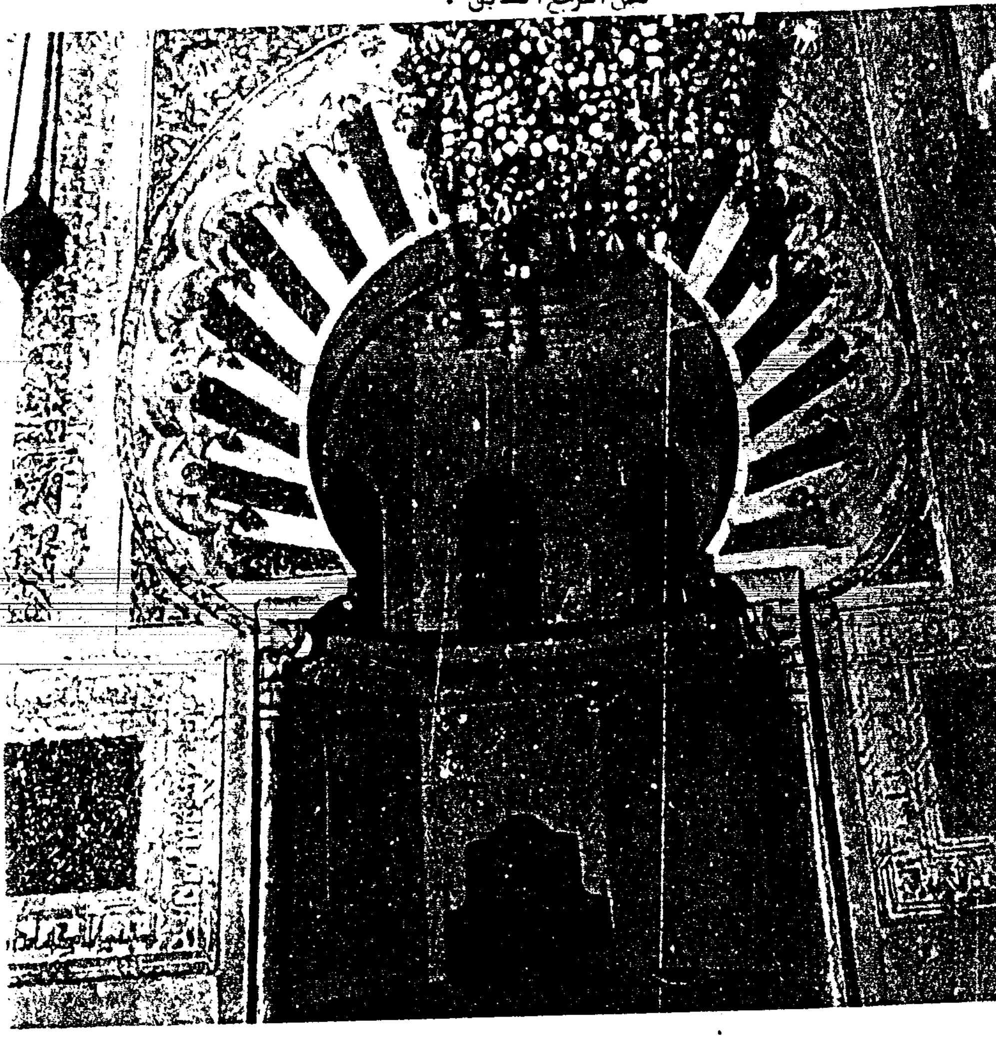

(لوحة رقم: 9) قبة امام المحراب الجامع الكبير بتلمسان
– رشيد بورويبة نفس المرجع السابق

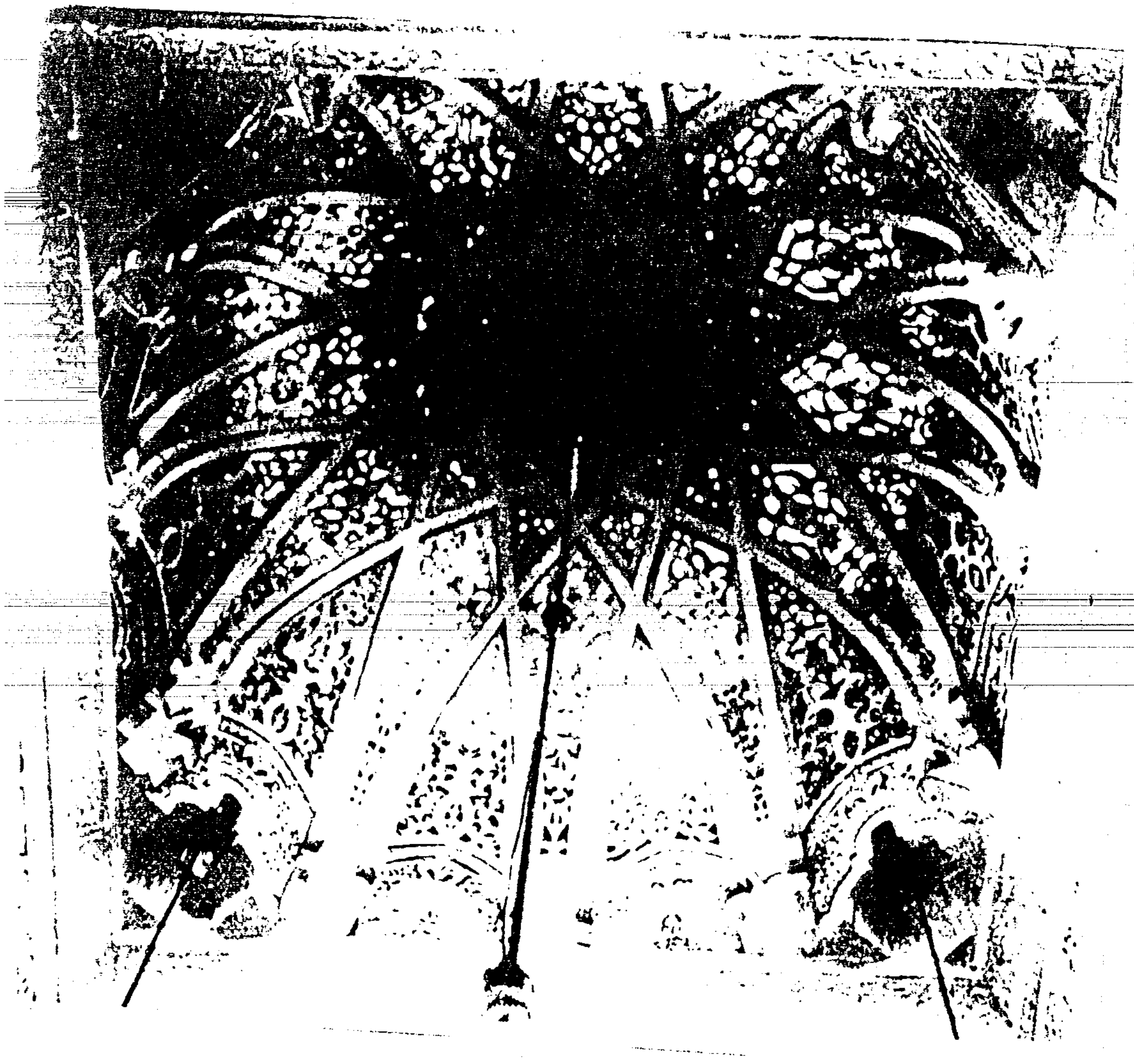

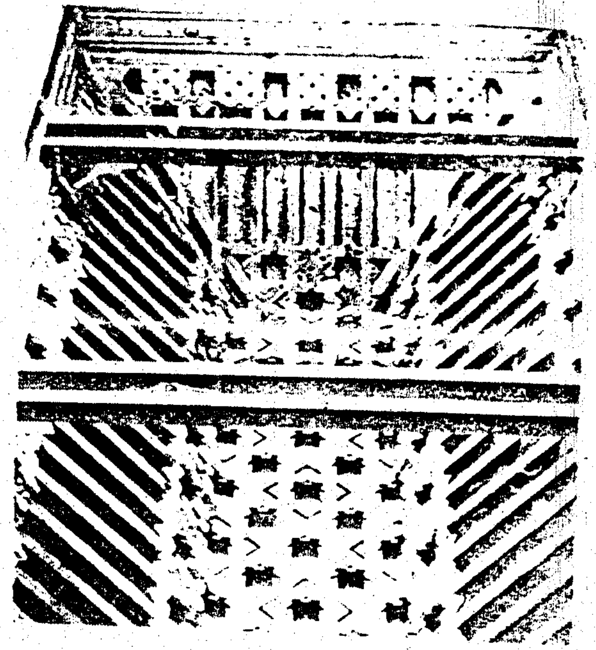

(لوحة رقم: 10)
السقف الخشبي لمسجد سيدي
ابي الحسن ــ رشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق

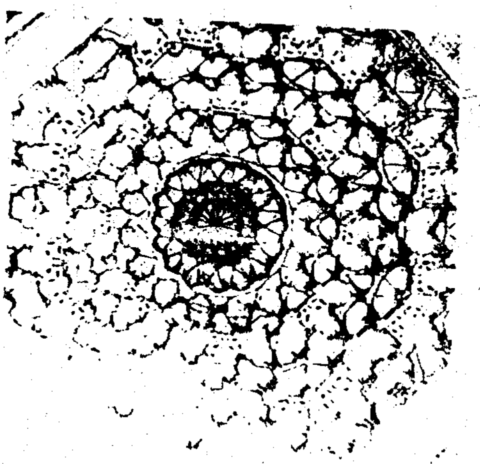

(لوحة رقم: 11)
قبة مسجد ابي الحسن عد رشيد بورويبة .
نفس المرجع السابق ، ص:

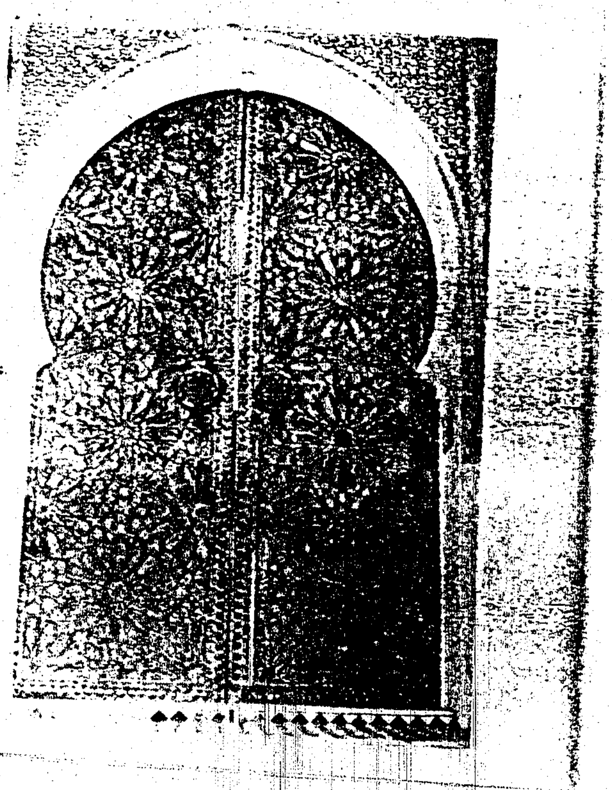

(لوحة رقم: 12)
باب جامع سيدي بومدين ــ رشيد بورويبة
نفس المرجع السابق .

(لوحة رقم: 14) عقد مفصص بالجامع الكبير بتلمسان

رشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق

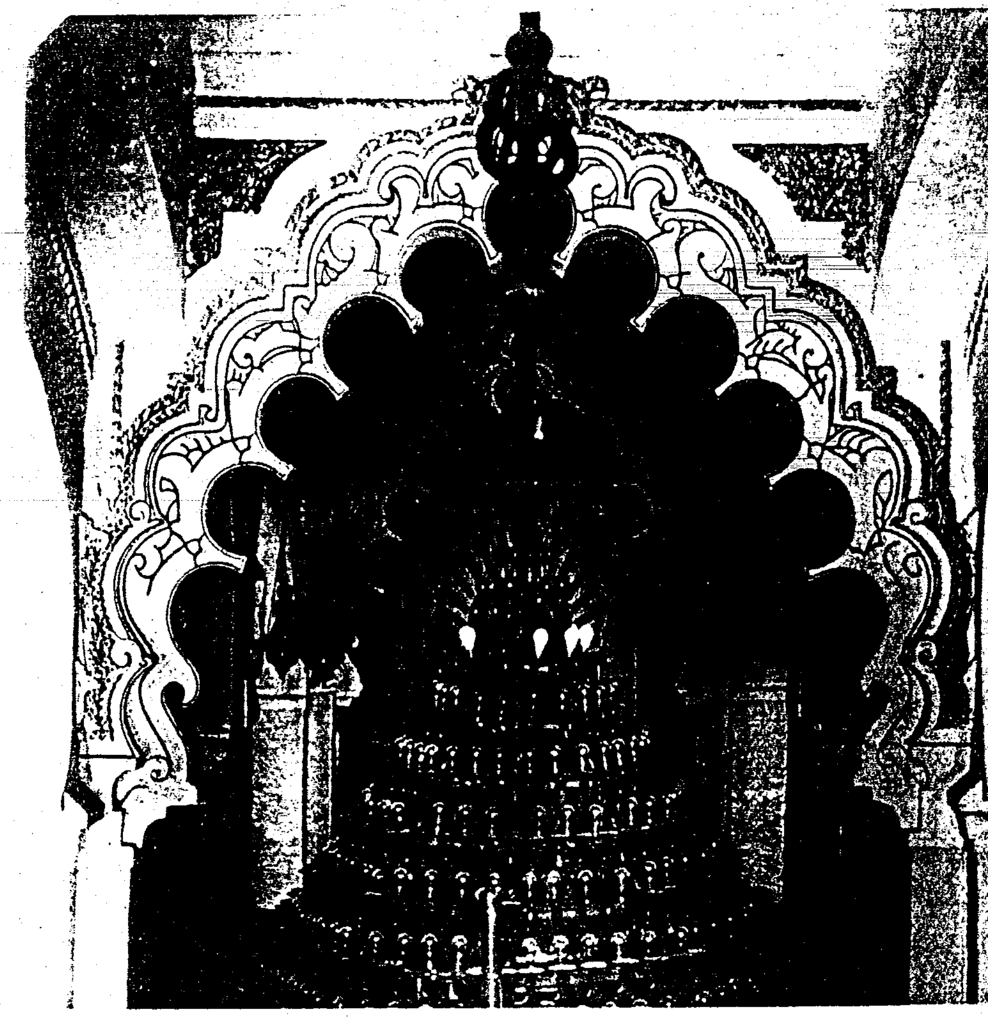

(لوحة رقم : 13) قبة امام محراب سيدي بومدين بتلمسان

ـرشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق .

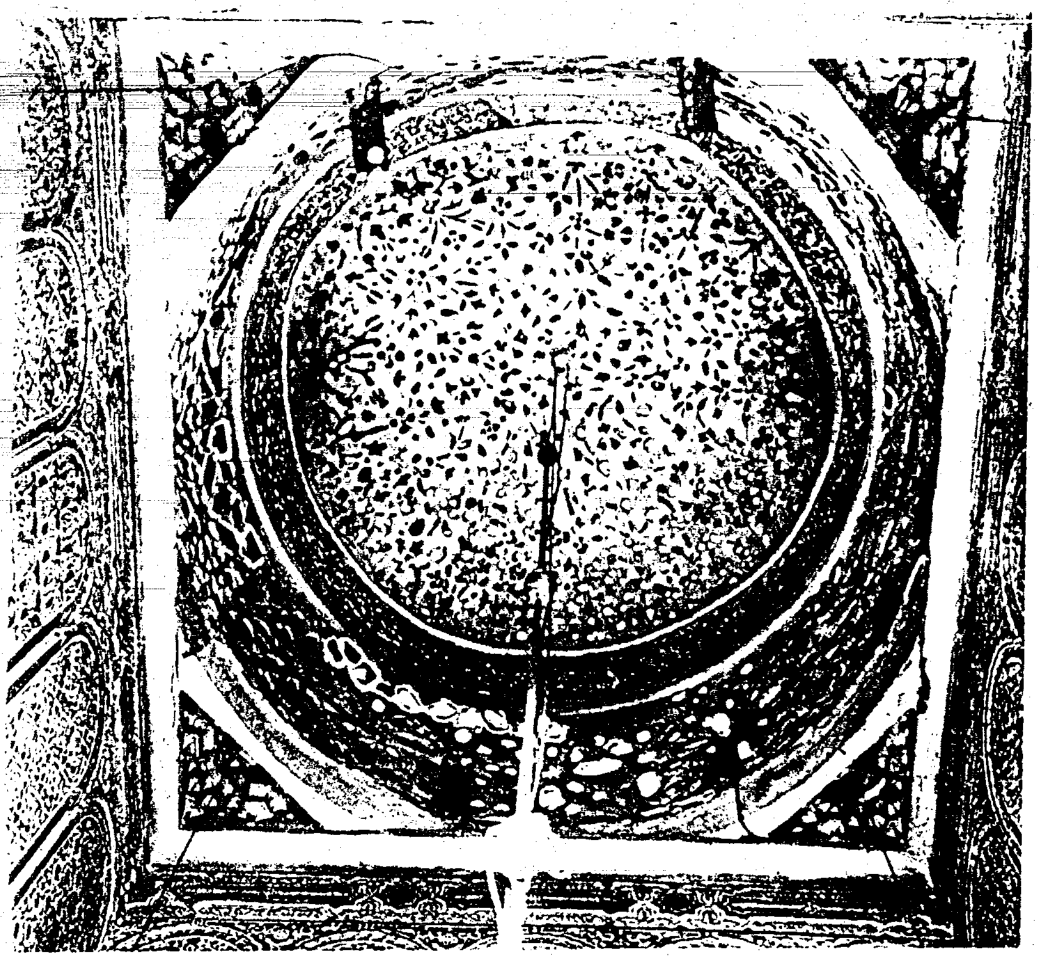

ملحق الأشكال

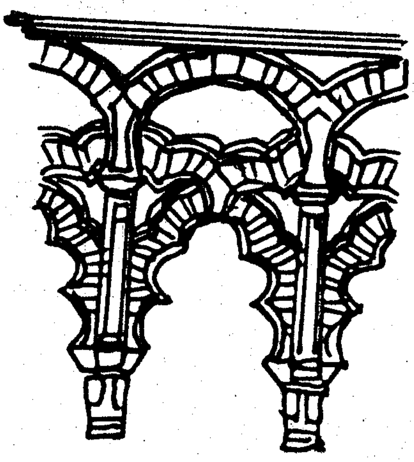

(شكل رقم. 3) عقد مفصص وعقود متشابكة

عبد العزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق .

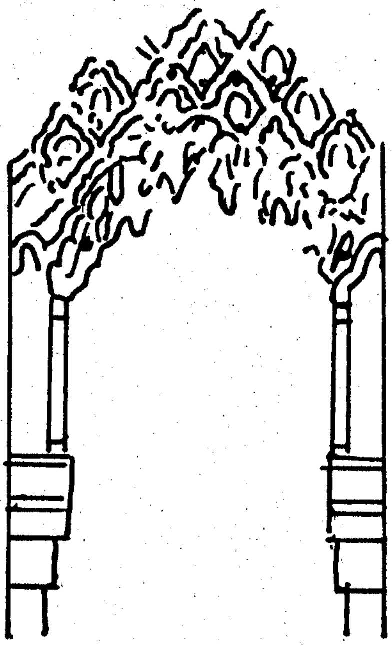

(شكل رقم. 1) عقد مقرنص ـ عبد العزيز الدولاتي

نفس المرجع السابق .

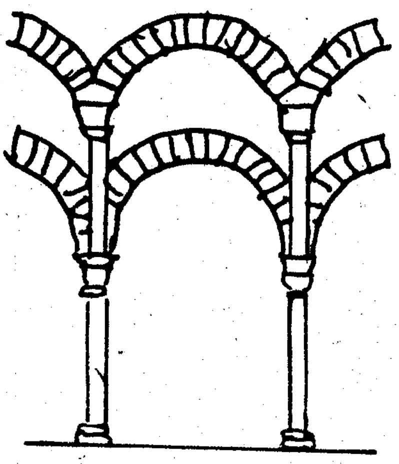

(شكل رقم. 4) عقدين متراكبين ـ

عبد العزيز الدزلاتي ، نفس المرجع السابق .

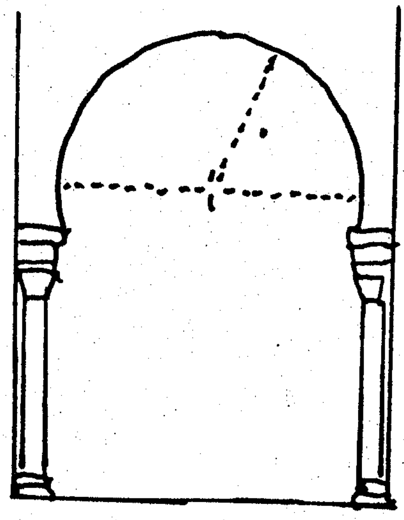

(شكل رقم. 2) عقد على شكل حدوة فرس

محمول على عمودين ، عبد العزيز الدولاتي

نفس المرجع السابق ،

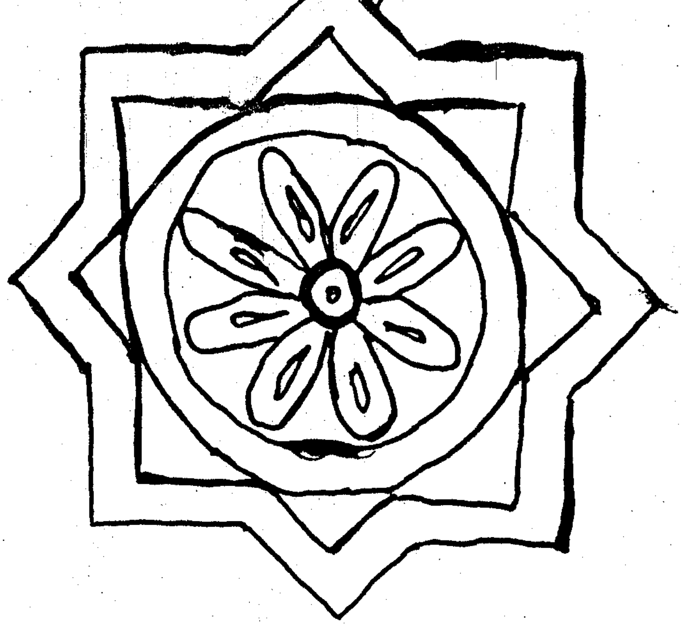

(شكل رقم: 6) نجمة ذات 8 رءوس مركزها زهرة .
رشيد بورويبة ، الفن الديني الاسلامي في الجزائر

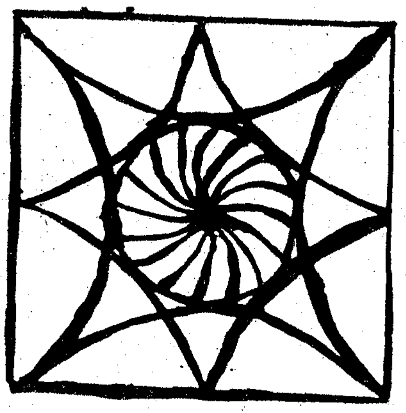

(شكل رقم: 5) قبة مرفوعة على
التلفاريق ذات شكل نجمي.
عبد العزيز الدولاتي ، نفس المرجع السابق
ص : 133

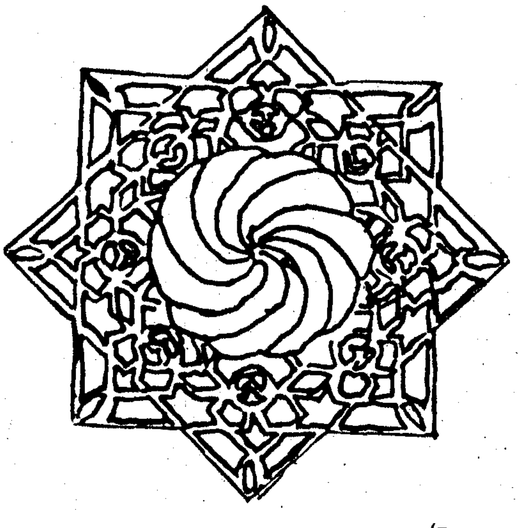

(شكل رقم: 7)
مربع بثمان رؤوس تتوسطه دوائر واشكال هندسية
متعددة. ـرشيد بورويبة ، نفس المرجع السابق

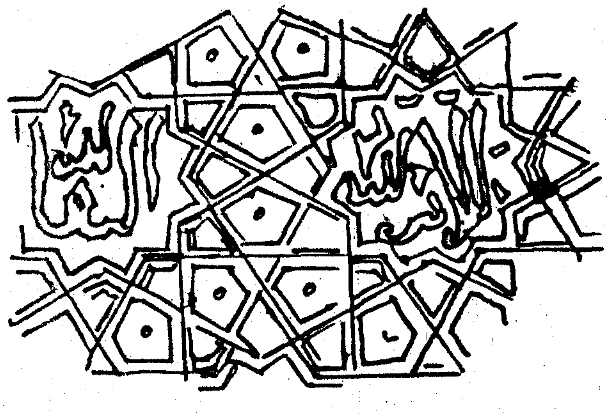

(شكل رقم: 8) نموذج للزخرفة الهندسية مصحوبة
بالخط العربي ـ رشيد بورويبة نفس المرجع
السابق .

المصادر والمراجع

أ ـ قائمة المصادر بالعربية

ـ أبو بكر بن القوطية ـ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتعليق اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1995.

ـ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير.
ـ الكامل في ا لتاريخ ، الطبعة السادسة ، دار الكتاب ، بيروت لبنان 1986.

ـ أبو زكريا يحي بن خلدون ـ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتعليق د . عبد الحميد حاجيات ، ج1 المكتبة الوطنية ، الجزائر 1980.

ـ عبد الرحمن بن خلدون ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مجلد سادس ، القسم الأول ، دار الكتاب اللبناني 19081 .
ـــــــــــ ـ المقدمة ، طبعة أولى ، دار الكتاب العلمية ، بيروت لبنان .

ـ أبو عبد الله الشريف الإدريسي ـ القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، تحقيق وتعليق اسماعيل العربي ، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.

ـ أبو عبد الله محمد بن محمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق عبد الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعة ، الجزائر 1986.

- أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان .

- محمد عبد الله التناسي - تاريخ ملوك بنو زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق وتعليق محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985.

ب)قائمة المراجع بالعربية

1 ـــ أحمد مختار العبادي ـــ في التاريخ العباسي والأندلسي ، دار النهضة بيروت لبنان 1972.

2 ـــ أنور الرفاعي ـــ تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، دار الفكر العربي ،ط 2 بيرت لبنان 1979.

3 ـــ جودت عبد الكريم يوسف ـــ العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984.

4 ـــ حاج محمد بن رمضان شاوش ـــ باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بنو زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1995.

5 ـــ حسين مؤنس ـــ تاريخ المغرب وحضارته ، م1 ،2 ،ط1 ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ـــ بيروت لبنان .

6 ـــ رابح بونار ـــ المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981،

7 ـــ رشيد بورويبة ـــ الكتابات الأثرية ـــ ترجمة ابراهيم شبوح ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1979.

8 ـــ زكي محمد حسن ـــ فنون الإسلام ، دار الرائد العربي ، بيروت لبنان 1981.

9 ـــ سعد زغلول عبد الحميد ـــ تاريخ المغرب العربي ، ج1 ، منشأة المعارف بالإسكندرية 1995.

10 ـ السيد عبد العزيز سالم ـ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان 1971.

11 ـ ـــــــــــــــ ـ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج2 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان 1972.

12 ـ ـــــــــــــــ ـ تاريخ مدينة ألميرية الإسلامية ، ط1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، 1969.

13 ـ ـــــــــــــــ ـ تاريخ المسلمين وآثاراهم في الأندلس ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان ، 1981.

14 ـ أبو القاسم سعد الله ـ تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985.

15 ـ عبد الحميد حاجيات ـ أبو حمو موسى الزياني (حياته وآثاره) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط2 ، الجزائر 1982.

16 ـ عفيف بهنيسي ـ الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه ـ دار الفكر ، بيروت لبنان .

17 ـ عباس محمود العقاد ـ الإسلام والحضارة الإسلامية ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت .

18 ـ عبد العزيز الدولاتي ـ مسجد قرطبة وقصر الحمراء ، دار الجنوب للنشر ، تونس 1977.

19 ـ عبد العزيز فيلالي ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1982.

20 ـ لقبال موســــى ـ المغرب الإسلامي سياسة ونظم ، ط1 ، نشر مطبعة البعث قسنطينة ، الجزائر 1969.

21 ـ ليفي بروفنسال ـ حضارة العرب في الأندلس ـ ترجمة ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان .

22 ـ محمد عبد العزيز مرزوق ـ الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار الثقافة بيروت ، لبنان .

23 ـ محمد عبد الله عنان ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ج2 ،ط1 ، القاهرة 1964.

24 ـ محمد بن عمرو الطمار ـ تلمسان عبر العصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

25 ـ يوسف الحوراني ـ الإنسان والحضارة مدخل ودراسة ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان 1973.

ج ـ المراجع باللغة الفرنسية :

1 – Atallah, Dhina – le royaume Abdelwadide à lépoque d'abou hamou moussa 1er et a bou tachfin 1er. OPU Alger 1985.

2 - G . Marcais - l'art Musulman. Puf – Paris – 1962.

3 – Rachid, Bourouiba – l'art religieux Musulman en Algerie – SNED Alger 1981.

4 - W.et .G . Marcais – les monuments Arabes de Tlemcen.Paris. 1903.

5 – TLEMCEN , Collectuin Art et culture, Altamera, Rotropress - Madrid Espagne 1971/

د) رسائل ودوريات وقواميس

الرسائل الجامعية :

1 ـ محمد الصالح الجون ـ آثار الأندلسيين في الأدب الموحدي رسالة دكتوراه معهد اللغة والأدب العربي - جامعة الجزائر. 1987

2 ـ مهتاري فايزة ـ أضرحة الأولياء بمدينة تلمسان رسالة ماجستير جامعة تلمسان معهد الثقافة الشعبية سنة 2000.

الدوريـــــات :

1 ـ محمد بلحميسي ـ دراسة للموريسكيين الأندلسيين بتونس ، مجلة تاريخ المغرب ، الجمعة التاريخية ، العدد 11 جوان 1974 مقال ص :44.

2 ـ بسام العسلي ـ الأتراك العثمانيون ومسلمي الأندلس ، مجلة منار الإسلام ، العدد الأول ، السنة الرابعة عشر ، أوت 1988 مقال ص :105.

القوامـــــيس :

1 ـ المنجد في اللغة والإعلام ، ط 23 ، دار المشرق بيروت لبنان .

2 ـ الكنز ، قاموس فرنسي عربي ، شروان السابق ، ط1 دار سابق بيروت لبنان

فهرس الموضوعات

مقدمة .... أ ـ هـ

المدخل : .... 1 ـ 8

1 ـ الموقع الجغرافي لبلاد المغرب.......................... 2 ـ 4

2 ـ الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس .... 5 ـ 6

3 ـ صلة المغرب بالأندلس قبل وبعد الفتح الإسلامي...... 7 ـ 8

الفصل الأول: .... 9 ـ 36

1 ـ الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس .... 10 ـ 16

2 ـ العلاقات المغربية الأندلسية .... 17 ـ 18

أ ـ في العهد الرستمي.......................... 18 ـ 22

ب ـ في العهد المرابطي.......................... 22 ـ 26

ج ـ في العهد الموحدي.......................... 26 ـ 29

3 ـ الهجرات الأندلسية لبلاد المغرب.......................... 30 ـ 36

الفصل الثاني : .... 37 ـ 62

1 ـ مكانة الأندلس الفنية في الحضارة الإسلامية ..... 38 ـ 39

2 ـ الفنون الزخرفية الأندلسية.......................... 40 ـ 41

أ ـ الزخرة في المباني.......................... 41 ـ 46

ب ـ الزخرفة الفخارية والخزفية .... 46 ـ 48

ج ـ الزخرفة الحجرية والرخامية.......................... 48 ـ 50

د ـ الزخرفة المعدنية .... 50 ـ 53

هـ الزخرفة الخشبية .... 53 ـ 54

و ـ الزخرفة العاجية والبلور الصخري.......................... 54 ـ 57

ز ـ الزخرفة على النسيج والطنافس.......................... 57 ـ 60

ي ـ زخرفة الكتاب.......................... 60 ـ 62

الفصل الثالث : .... 63 ـ 90

1 ـ تلمسان جغرافيا و تاريخيا.......................... 64 ـ 66

2 ـ الفنون الزخرفية بتلمسان.......................... 67 ـ 68

أ ـ الزخرفة على العمائر.......................... 69 ـ 80

ب ـ الزخرفة الفخارية والخزفية .... 80 ـ 82

ج ـ الزخرفة الحجرية والرخامية .... 82 ـ 84

د ـ الزخرفة الخشبية .... 84 ـ 86

هـ الزخرفة المعدنية .... 86 ـ 87

و ــ الزخرفة النسيجية .... 87 ــ 89
ز ــ زخرفة الكتاب .... 89 ــ 90

الفصل الرابع .... 91 ــ 107

1 ــ ملامح تأثير الفن الزخرفي العربي الإسلامي على نظيره الأندلسي........................ 92 ــ 95
2 ــ ملامح تأثر الفن الزخرفي الأندلسي على نظيره الزياني والمريني بتلمسان .... 96 ــ 100
3 ــ أهم الجوانب المتأثرة وخلاصة التأثيرات في باقي الفنون .... 101 ــ 104
4 ــ الفن المدجن .... 105 ــ 107

الخاتمة........................ 108 ــ 110

ملحق الخرائط واللوحات والأشكال .... 111 ــ 129

قائمة المصادر والمراجع .... 130 ــ 137

فهرس الموضوعات .... 138 ــ 139